"الرواية الحائزة على جائزة الكومنويلث عن العمل الأدبي الأول فرع أفريقيا"

فريق متميزون
E-BOOK

آزوري

ك. سيلو دويكر

ترجمة: محمد أسامة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

آزوري

الرواية الحائزة على جائزة الكومنويلث عن العمل الأدبي الأول فرع أفريقيا

الكاتب: ك. سيلو دويكر

ترجمة: محمد أسامة

عن الرواية..

"هذه رواية مؤلمة لأبعد حد. فتى على وشك أن يتم عامه الثالث عشر، مات أبوه وأمه محترقين قبل 3 أعوام، ولم يجد غير الشارع ليسكنه وينشأ بين أطفال الشوارع والعصابات في جنوب أفريقيا. يحكي لنا الفتى الأحداث على لسانه؛ نرى بعينيه كل ما يعانيه من معاملات البشر له من حوله من كل الطبقات وكيف يحاول أن يتعايش معها ويقاومها، على سبيل المثال كيف يحاول طفل في عمره أن يعتمد على نفسه ويكسب قوت يومه فيضطر لفعل أي شيء مقابل ذلك. إلى أي مدى قد تصل بشاعة القصة في مجتمع يتغلب عليه الفوضى والانحدار؟ نعيش معه ظروفه القاسية وعجز النظام وإلى أي مدى قد يصل به الأمر...

رواية واقعية جدًا ولكننا نود لو تكون خيالًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن المؤلف..

ك. سيلو دويكر

ولد في جنوب أفريقيا عام 1974، تلقى تعليمه في ذروة الفصل العنصري بجنوب أفريقيا. تم إرساله إلى مدرسة ابتدائية كاثوليكية خارج البلاد ثم أكمل تعليمه بمدرسة ""ريدهيل"" بجوهانسبرج. سافر بعد ذلك إلى إنجلترا للالتحاق بمدرسة ""هنتنجتون"". عاد إلى جنوب أفريقيا حيث التحق بالجامعة لدراسة كتابة النصوص الإعلانية. ثم درس الصحافة في جامعة ""رودس"" في جنوب أفريقيا. والتحق لفترة وجيزة بجامعة ""كيب تاون"" وتم طرده من الجامعة.

أدمن المخدرات فخضع للعلاج بمستشفى للأمراض النفسية. وبعد خروجه، بدأ في كتابة السيناريو والإعلانات وكانت أولى رواياته هذه ""آزوري"" التي نُشرت بعنوان ""13 سنتًا"" وحازت على جائزة ""الكومنويلث"" عن العمل الأدبي الأول فرع أفريقيا 2001. ثم رواية ""العنف الهادئ للأحلام"". وبعدها أصيب بانهيار عصبي، مما دفعه للانتحار شنقًا في يناير عام 2005."

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

اسمي «آزوري».. يُنطق هكذا: «آاا-زو-ري». رحلت أمي ولم تترك لي سواه.

لي عينان زرقاوان، وبشرة داكنة. اعتدتُ أن يحدق الناس فِيَّ، خاصَّةً الكبار. كما اعتدت أن يضربني أطفال المدرسة لزُرقة عَيْنَيَّ؛ كانت تثير كراهيتهم. أما الآن، حينما ينظر الأطفال إليَّ، فإما أن يشتمونني، أو أن يبتسموا، بينما يرمقني الكبار بنظرات ذات مغذى.

أعيش وحدي، متخذًا شوارع ضاحية "سي بوينت" الفخمة بيتًا لي. واليوم أصبحت أقرب إلى الرجولة؛ إذ أوشك أن أبلغ ثلاثة عشر عامًا، ويمكنني العثور على طعام لم يلوِث بالكثير من النمل والذباب قرب شواطئ "كامبس باي" و"كليفتون"، ذلك إن خَلَتِ الشوارع من دوريات الشرطة بالطبع، فهم لا يعاملوننا بلطف كافٍ.

حين أرغب في بعض الفاكهة، أذهب إلى المحطة، حيث يعمل تجار الفاكهة المُلوَّنون من أبناء الجذور المختلطة. أنا - في الحقيقة - لا أحبهم، فهم دائمًا ما يصيحون فينا كي نبتعد. يفضل أكثرهم إلقاء الفاكهة في القمامة، على أن يعطوها لنا. كما أنهم يضعون أشياء خبيثة في صناديق القمامة التي نقصدها بحثًا عن الطعام، أعرف ذلك، فأنا لست بأحمق. أعرف أنهم أشرار.

حتى أنني أعرف بعض الأطفال اللذين وقعوا في أسر تلك التعاويذ الشريرة، فصاروا مجبرين على التجول ليلًا لاصطياد الزبائن المدمنين، بل إن السحر الأسود قد تملك من بعض الأطفال حتى صاروا قادرين على التحول التام، إما إلى جُرذان أو حمام، والحمام نوع من الجُرذان، غير أن له أجنحة. ما إن تصير جُرذًا حتى يجبروك على فعل الخبائث في مصبَّات المجاري والأماكن المُظلمة. تلك هي الحقيقة، وهذا هو الحال. لقد رأته عيناي.

لكنني - مثلما قلت - أوشك أن أصبح رجلًا، ويمكنني الاعتماد على نفسي. يصيح تجار الفاكهة بالأفريقانية: «على أمثالكم الذهاب إلى المدرسة»، ولماذا لا يقولون ذلك، يا لسهولة الأقوال! فقدت أبويَّ منذ ثلاث سنوات. كان أبي سفيهًا وورَّط أمِّي في المشاكل. كنت في المدرسة يوم مقتلهما. عُدتُ إلى كوخنا فوجدتهما جُثتين في بركة من الدماء. وقعت الحادثة قبل ثلاث سنوات، كان يومها آخر عهدي بالمدرسة.

أسير كثيرًا. تشقق باطن قدميَّ، لكنني نظيف؛ أستحمُّ كل صباح على الشاطئ. أغتسل بماء البحر، وأستعمل الإسفنجة أحيانًا، فإن لم أجد واحدة استخدم خرقة قديمة لتؤدي المهمة نفسها، ثم أشطف ماء البحر تحت رشاشات الاستحمام الخاصة بالشاطئ. ليس الاغتسال بالماء البارد صعبًا كما يبدو، بل يمكن اعتياده، تمامًا ككل شيء آخر.

لا يصدق صديقي «بافانا» أنني لم أفزع من رؤية جُثَّتَي أبويَّ، لكنني أخبرته بما فعلت يومها. بكيت، وانتهى الأمر، فما كان أحد ليشفق عليَّ مهما فعلت. ما زال «بافانا» طفلًا لم يتجاوز التاسعة بعد، ومع ذلك يسكن الشوارع. إنه طفل أحمق، له بيت بضاحية «لانجا» في مدينة «كيب تاون»، يمكنه العودة إليه، لكنه يفضل التسكُّع في الطرقات. حين يكسب المال، يشمُّ الغراء، ويدخن «الماندركس». لا أحب ذلك الشيء؛ لأنه يؤلم رأسي، لكنني أحب تدخين الحشيش، أحبه بشدة. حين

يشم «بافانا» الغراء، ويدخن «الماندركس»، يتحول إلى حيوانًا حقيقيًّا؛ يُشخَر مثل الخنازير، ويتثاقل لسانه، ويتغوَّط في بنطاله. لذا أضربه عندما أراه يدخن ذلك الشيء. ضربته مرة بقوة حتى اضطر إلى الذهاب إلى المشفى لخياطة الجرح. لا أحب تلك الأشياء، إنها تضر جسدك أشد الضرر.

أنام في «سي بوينت» قرب حمام السباحة؛ لأنه المكان الأكثر أمنًا خلال الليل. تحوي المدينة قوَّادين، ورجال عصابات كُثُرًا. لا أريد كسب المال على طريقتهم، لذا أساعد في ركن السيارات صباحًا في «كيب تاون»، وليس ذلك بعمل يسير؛ فعليك الوصول مبكرًا، وقد تضطر إلى الشجار دفاعًا عن مكانك. لا يتعرض لنا الشبان الأكبر سنًّا، فهم يسيطرون على أماكن انتظار السيارات في وسط المدينة. هكذا تجري الأمور، ولا أتذمر، أو أعترض.

أساعد الناس في ركن سياراتهم، ولا أغسلها إلا بإذنهم، فغالبًا ما يسبونك إذا غسلتها من دون إذن لأنك طفل، وهم كبار. هكذا تجري الأمور هنا. عليك التعامل دومًا مثل الكبار. عليك التحدث مثلهم؛ أي إن عليك النظر في أعيُن الكبار الذين تخاطبهم، والتحدث بصوت مرتفع، فإن تحدثت برقة سيشتمونك. كما عليك أن تكون نظيفًا؛ لأن الكبار دومًا نظيفون. وعليك ألا تتحدث إليهم كما تتحدث إلى الصبية مطلقًا، فلا يمكنني - مثلًا - التحدث إليهم كما أتحدث إلى «بافانا». عليَّ دائمًا استخدام «سيدي»، و«سيدتي»، أو استخدام «من فضلك» و«شكرًا» إن أسعفتني الذاكرة، فهاتان الكلمتان لهما مفعول سحري.

تلك بعض أسراري. ودائمًا ما أنال مبلغًا جيدًا إذا قرنتُ ذلك بابتسامة.

أعمل بجوار مطعم «صب واي» للوجبات السريعة. بقليل من التوفيق، يمكنني كسب ما يكفي لشراء نصف رغيف خبز أبيض مع رقائق الشيبسي والكولا، إلى جانب سيجارة حشيش من «ليزيل» التي تقيم أسفل الجسر.

لا أثق بأي من الكبار عدا «ليزيل»، فدائمًا ما تقترض منِّي المال وتعيده بعد أسبوع، كما تسمح لي برؤيتها عاريةً، ولا تكذب. فإنها ليست كسائر المقيمين أسفل الجسر. فهناك يقيم كل الأنذال، والعصابات، والسكارى ذوو الوجوه المتبلدة.

يا لها من مسكينة! أعرف كيف تكسب «ليزيل» المال، وليس ذلك بعمل يسير، لذا لا أسألها عنه مطلقًا. ألتزم الصمت متى أصيبت بكدمة أو قطع أسفل فمها، أتصرف كأن شيئًا لم يحدث. نتحدث عن موسيقى الهاوس الجنوب أفريقية، ونُخمِّن إن كان نوع الحشيش الذي سيحضره لها ذلك الرجل من أتباع الديانة الراستافارية بجودة «ذهب مالاوي» و«مبوندو»، أو نتحدث عن أي شيء آخر. تحتل «ليزيل» مكانة خاصة في قلبي، لكنها ليست رفيقتي؛ فهي على علاقة بفرد من عصابة «هارد ليفينجس».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

تسلَّل الصباح ببطء. كان «بافانا» نائمًا إلى جواري مُتكوِّرًا كالهلال. أيقظتني مثانتي وأمعائي الممتلئة، فقمتُ. فركت عينيَّ، وتثاءبت وأنا أتبوَّل. نحن ننام في الركن البعيد من الشاطئ، بالقرب من حمام السباحة. ولما كانت المراحيض العمومية مغلقة في مثل هذه الساعة المبكرة، سرت على الشاطئ قليلًا، وقضيت حاجتي قرب مصب المجاري. رأيت سحبًا برتقالية ثقيلة تغطي السماء، وحمام زاعق يطير فوقي.

- يا بُني، انهض يا «بافانا»! علينا إحضار الإفطار.

دفعته بيدي.

- «بافانا».. «بافانا».

واصلت ذلك نحو خمس دقائق حتى نهض.

- عليك الإقلاع عن تلك المخدرات السخيفة. إنها تدمرك. تأمل حالك. أنت عاجز حتى عن النهوض. من حسن حظك أنني مَن يوقظك، لو كان شخص آخر لظنَّ أنك ميت.

تثاءب «بافانا»، ونظر إليَّ بوجه مائل.

تمتم:

- أنا جائع.

- بالطبع، فهذا ما تجيده. والآن اخرس، وقم بما عليك فعله.

- اللعنة على قواعدك الغبية.

صفعت مؤخرة رأسه، فأخرج لي لسانه.

- لقد أشرقت الشمس. هيا أسرع، فأنا جائع أيضًا.

خلعنا ملابسنا، وسرنا نحو الماء ببناطيلنا القصيرة فقط.

- لا تضطرني إلى جرِّك بالقوة، يا بُني، نحن نكرر هذا النقاش كل صباح.

- اللعنة! مَن قال إن عليَّ الاغتسال كل يوم؟

- عليك اللعنة! كُفَّ عن الهراء، أنت تعرف قواعدي، إذا كنت تريد مصاحبتي فعليك الاغتسال. هيا اذهب.

قلتها ودفعته في المياه فصرخ.

- اصمت! لا يزال الناس نيامًا، لسنا في المدينة.

بدأت أخوض في الماء، وحين غمر كاحلي رأيت «بافانا» يدعك جسده بقماشة.

قلت محذرًا:

- ادعك جيدًا.

أجابني بالأفريقانية:

- تمهل يا رجل!

تركته يغادر بعد فترة، فشطف جسده تحت رشاش الاستحمام، ثم جلس على صخرة ليجفَّ في الشمس إلى أن أغتسل. فكَّرت خلال الاغتسال في برنامجي لهذا اليوم. كان الماء المالح يحرق عينيَّ.

بعد الاغتسال، ارتدينا ملابسنا، واتجهنا إلى أول الشارع الرئيسي. أعرف امرأة هناك تعمل في مطعم يُدعى «لا بيرلا»، عادة ما تترك لنا بقايا طعام قرب شجيرة، لكنني أحضر الطعام بنفسي، فلا يمكنني الوثوق بـ«بافانا»؛ لأنه ما يزال طفلًا، وأحيانًا يثير تعاطي المخدرات السخيفة تهوَّره، لقد عملت بجدٍّ، ولن أسمح لأحد أن يحرمني وجبة مضمونة.

لطيفة هي الخالة التي تجلب لي الطعام. اسمها «جويس»، لكنها تحب أن أناديها بخالتي، تقول إنني أذكرها بابنها في مدينة «ليشتنبرج». ترسلني الخالة - في مقابل الوجبة - لقضاء حاجة لها بمكتب البريد، أو تعطيني مالًا لأشتري لها جريدة «دي برجر»، فالكبار لا يفعلون شيئًا مجانًا، عليك فعل شيء في المقابل دائمًا، إلا أن ذلك لا يزعجني، فهي امرأة لطيفة.

جلسنا وتناولنا الطعام في شرفة تطل على حمام السباحة. تُعبِّئ لنا «جويس» الطعام في شنط «ماكدونالدز» وتزودنا بالملاعق. شاهدنا السبَّاحين يمارسون تمارين الإحماء. كان لحمام السباحة لون السماء الأزرق الصافي كعادته في الصباح. كنت عاشقًا للسباحة، وتكاد رغبتي في تجربة حمام السباحة هذا تقتلني، لكن ستة راندات مبلغ كبير، كما سأحتاج حينها إلى منشفة خاصة.

تناول «بافانا» كفايته من الطعام، ثم قال:

- علينا كسب بعض المال اليوم.

- حسنًا. ما الذي تنوي فعله؟

- أنوي؟ ألسنا رفيقين؟

- اللعنة! كُفَّ عن هذا الهراء اليومي. متى ستفهم أنني لستُ أُمَّك؟ إنما أُقدم إليك معروفًا بتركك تنام بجانبي، وإلا فأنت تعرف ما قد يصيبك، هذا كل ما في الأمر. اللعنة عليك وعلى مخدراتك الغبية! أتريد العمل معي لشراء مخدراتك الغبية؟ يا لك من قذر! اتركني بمفردي!

دفعته، وسرتُ ناحية الحديقة.

لستُ بوالد هذا الطفل، وقد بدأت أهتم به، لا، لن أسمح بذلك. لقد شاهدت مصرع واختفاء الكثير من الأطفال، والآن أرى التعلق بأي شخص محض غباء. فماذا إن تناول جرعة مخدر زائدة، كيف سيكون حالي حينها؟ أجوب الشوارع أبكي ولدًا غبيًّا هرب من بيته ليقتل نفسه بالمخدرات؟ لا، لستُ غبيًّا. إذا أراد تقليد الكبار فليهجرني، إذا أراد اللعب بالنار فليلعب وحده.

سرتُ باتجاه نافورة قرب بعض المراحيض، يا لغرابة الأطوار! يضع الكبار نافورة لشرب المياه قرب المراحيض؟ بل يضعونها إلى جوار مراحيض الرجال مباشرة. شربتُ بعض الماء، وملأت زجاجة بلاستيكية، إحدى تلك الزجاجات النظيفة التي يبيعون فيها مياهًا فاخرة. هل لتلك المياه مذاق مختلف؟

سرتَ مبتعدًا على طول الشاطئ حتى بلغت منطقة المثليين. جلست على دكة، أنتظر وقوع أحدهم في الطعم. بعد فترة طويلة سمعت صفير أحدهم. ولم ألبث حتى وجدتني متوجهًا بصحبة رجل أبيض إلى شقته. طلب منِّي خلع الحذاء عند المصعد. أعرف النظام جيدًا، كان ينتظر منِّي التعرِّي فور دخول الشقة، لذا سارعت إلى خلع ملابسي عند باب المطبخ.

سألني مُحدِّقًا في جسدي العاري:

- ما اسمك؟

- «آزوري».

- اسم مُثير.

قالها وهو مسحورًا بزُرقة عينيَّ.

ابتسم وهو يتحسس وجهي. ثم قادني عبر المنزل إلى المرحاض. كان البيت نظيفًا ودافئًا، سرت فيه بحذر حتى لا تُعكِّر خطوة مستهترة منِّي نظافته. حين خلع ملابسه، اهتزَّ عضوه أمامه. اقشعرَّ بدني لمنظره، وانتظرته كي يقودني إلى حوض الاستحمام. على كل حال، أعرف هذا النوع من الرجال، كان يرغب - على الأغلب - في بعض المُداعبة، لا شيء آخرَ.

سألني والماء ينسال:

- لماذا أنت صامت هكذا؟

- لا شيء، إنما أنصت فحسب.

- إلى ماذا؟

- إلى صوت منزلك، إنه شديد الهدوء.

- آه، فهمتك، أترغب في بعض الموسيقى؟

- لا، يعجبني الوضع هكذا، من فضلك لا تفعل.

فرك الصابون سريعًا في يديه، ودعك ظهري حتى مؤخرتي. كنت مضطرًا للابتسام، فذلك ما يتوقعونه. لقد اعتدتُ لهو الكبار هذا.

ابتسمت قليلًا، فأحاط خصري بيديه، وأمسك ببطني. كان رجلًا متسرعًا، وقبل أن يتمادى في النزول، انحنيت لالتقاط الصابونة. غادر ليجفف جسده وتركني بضع دقائق في جنة من ماء دافئ وصابون ذو رائحة منعشة. دعكتُ بالصابون جسدي كله، وأخرجت الفقاقيع من فمي قدر استطاعتي، مع ابتسامة بلهاء تحتلّ وجهي. سال الماء على جسدي ممتزجًا باللذة، وارتعشت من أثر النظافة.

- هيا تعال، أنا في انتظارك.

لا يصرحون بأسمائهم خوفًا من مصادفتك في الطريق. حينها لن يلقوا التحية، ولن يومئوا حتى برؤوسهم، بل سيمرون بك كأنك لم تكن.

قال بنبرة أحد الكبار الجادين:

- هيَّا أسرع! لديَّ أمور أحتاج إلى إنجازها.

أغلقت الصنابير، وهززتَ جسدي لطرد المياه العالقة. عند الباب، ناولني منشفة رائحتها منعشة ولونها أزرق. تنهَّدتُ بلذّة وأنا أجفف جسدي، بينما عيناه تتابعان كل خطوة أخطوها.

قال بتوتر وهو ينتزع المنشفة:

- هيَّا تعالَ! علينا البدء.

سرتُ خلفه، عُريانَين، إلى غرفة النوم. كان ضوء النهار ينسال عبر الستائر الفاخرة. تعلو فراشه صورة مؤطرة لولد صغير يتبوَّل وهو يرمقنا بنظرة حالمة. تفحَّصت الغرفة الأنيقة من حولي لبُرهة بينما ينتصب عضوه.

- استلق.

قالها فنمتُ إلى جواره. ثم بدأ في مداعبتي. كنت بحاجة إلى تركيز شديد كي أُثار جنسيًّا. فكَّرت في «توني براكستون»، و«ماري جي بلينج» المغنيتين السمراوتين المفضلتين لدي، فغالبًا ما يجدي ذلك معي.

استعملنا كمية كبيرة من زيت الأطفال، وأغمضت عينيَّ بينما أكثر هو من التأوُّه .

قال بتأدُّب لم أعتده:

- أخبرني عندما توشك على القذف.

- يمكنني إفراغه في أي وقت، أنا في انتظارك.

- إذن، فلنفعلها الآن.

وقف في مواجهتي وأنا مُستلقٍ على الفراش، وأخذنا في الاستمناء. سرعان ما دارت عيناه، وشعرتُ بقطراتٍ دافئة تضرب صدري ووجهي. ثم ناولني منشفة لأتجفَّف.

توجَّهنا إلى المطبخ وحافظة النقود في يده.

- لقد أحسنت.

ناولني ورقة فئة عشرين راندًا. كان مبلغًا زهيدًا، فقد تقاضيت خمسين راندًا من قبل، لكنني أعي جيدًا خطورة الجشع؛ مَن يدري، لعله يصير زبونًا مستديمًا. ارتديت ملابسي في عجلة وغادرت الشقة. لكن قبل الخروج من المبنى رمقني رجل أبيض بعينين تهمسان:

- تعالَ إلى فراشي.

كان أصغر سنًّا من الأول بكثير. قررت أن أتبعه إلى الطابق الأول حيث يقيم، هناك شرعت في خلع الـ«تيشيرت»، قال:

- دعك من ذلك، لست مضطرًا إلى خلع ملابسك. لا أحتاج إلا فمك. لا تقلق، لن أقذف فيه.

لم يستغرق الأمر منِّي وقتًا يُذكر، فسرعان ما أفرغ مخزونه ولطخ به صدره العاري. ثم منحني أربعين راندًا، ورافقني حتى باب الشقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

= كنتُ أعدُّ النقود حين أدركتُ حاجتي إلى حذاء جديد، لكن موعد وردية «جويس» لم يحِن بعد، فإنها تعمل في الليل فقط. لذا قررت زيارة الشقة الصغيرة التي تتشاركها مع خالة أخرى. هناك، على الباب، استقبلتني «جويس» بسعادة بالغة.

- شكرًا على الطعام يا خالة، كنت جائعًا حقًّا. أين الخالة «بيرثا»؟

- ذهبت الخالة إلى بيتها لقضاء بضعة أيام، أنت تعرف كم تحن إليه، أحيانًا ما تصبح «كيب تاون» مدينة مُوحشة.

كانت تتحدث وهي تتمشَّى بشبشبها.

- على أي حال، لديَّ نقود أودُّ لو تضيفينها إلى حسابي البنكي.

تجيد «جويس» التعامل مع البنوك، تفهم طريقة عملها. أما أنا - وقد نسيت حتى مسكة القلم - فكيف لي زيارة البنك بنفسي؟ يطرح الكبار هناك أسئلة كثيرة. عليك تذكُّر تاريخ مولدك وعمرك بدقة. كما عليك امتلاك محل سكن بعنوان ثابت. أي يتوجب عليك البقاء في بُقعة واحدة لخمس سنوات مثلًا، وإذا انتقلت فعليك إبلاغ البنك. يلزمهم معرفة جميع تحركاتك، مثل أماكن مبيتك المختلفة، وبمَن يمكنهم الاتصال حين يريدون فعل شيء بنقودك. إنهم كرجال العصابات، يريدون معرفة كل شيء حتى لا يسعك الهرب منهم. علاوة على ذلك، تحتاج إلى بطاقة ووظيفة تتكسَّب منها نقود بانتظام. كلما أودعت نقودًا، أضافوا إليها نقودًا عن طريق إقراضها للآخرين. العاملون في البنوك أذكياء حقًّا. هكذا أخبرتني «جويس». كما تقول إنها طلبت فتح حساب بنكي لي في البنك الوطني الأول، هناك ستكون جميع نقودي في أمان. كلما كسبت مبلغًا أعطيتها منه جزءًا لتحفظه لي في الخزانة. أنوي استخدام مدخراتي يومًا ما. لا أعرف فيما سأوظفه بالتحديد، ولا مقدار المبلغ بالضبط، لكني أشعر بأنه سيكون ذا نفع يومًا ما.

سلَّمتها اليوم عشرين راندًا، واحتفظت بالباقي. لا تستفسر «جويس» عن مصدر نقودي مُطلقًا، هذا ما يعجبني فيها. إنها - على عكس معظم الكبار - لا تُكثِر من الأسئلة. تجد «جويس» سعادة بالغة في مجرد الجلوس إلى جوار النافذة للخياطة أو ممارسة أي عمل يدوي آخر. أجلس أحيانًا إلى جانبها، لا ننطق كلمة على مدى ساعات. يمنحني ذلك شعورًا بالطمأنينة. تُشركني أحيانًا في إحدى سجائرها حين تتخفف من دور «الخالة»، وهو ما لا يحدث كثيرًا. لا تضربني «جويس» مُطلقًا، لكنها قد تشطات منِّي غضبًا، خاصة عند اتساخ ملابسي. حينئذ، أشتري الصابون وأغسل ملابسي في مرحاض عام، هذا إذا توفر المال؛ لأن للطعام الأولوية دائمًا. أغسل ملابسي قطعة تلو الأخرى. أبدأ بـ«تيشيرت»، ثم أغسل الجوارب بعد جفافه، وأخيرًا البنطال الذي أرتديه مبتلًّا تاركًا للشمس مهمة تجفيفه خلال سيري الذي لا ينتهي.

صبَّت لي «جويس» الشاي. كنت أجلس على الأرض، على مقربة منها، نستمع إلى الراديو الترانزستور الخاص بها. جاءت الأنباء بمواصلة جماعة «باجاد» عملياتها الإجرامية ضد العصابات والشرطة الفاسدة، إذ أصيب رجل شرطة آخر بالنيران في أثناء وجوده في منزله.

- أتدري يا «زوزو»؟ يدّعي مُخرِّفو «باجاد» هؤلاء أنهم أتباع الرَّب، لكنهم يتلون تراتيل الشيطان.

- كلامكِ صحيح يا خالة.

- بمناسبة الحديث عن العصابات، إذا سمعت مرة بانضمامك إلى عصابة فستخسر الخالة التي تمنحك الطعام وتدخر لك المال إلى الأبد. هل تسمعني؟

- أنا يا خالة؟! أنا لست مثلهم، لستُ غبيًّا.

- عليك أن تعدني يا «زوزو». قل إنك لن تصبح عضوًا في عصابة.

رمقتني بنظرة معلمة حازمة، فأجبتها:

- أعدكِ يا خالة.

- لا، ليس بتلك الصيغة. قلها كاملة. أريد سماعك تنطق بها.

- أعدكِ ألا أصبح عضوًا في عصابة يا خالة.

- هذا جيد يا «زوزو»، هذا جيد.

جلسنا صامتين فترة نستمع إلى سائر الأنباء، ثم أخبرتها بحاجتي إلى المغادرة.

***

ذهبت إلى «جرين بوينت»، حيث يعمل «ألين» قوَّادًا. وجدته أسفل شجرة كبيرة يتحدث إلى إحدى فتياته البيضاوات. بدا أنهما يتجادلان في أمر ما. انتظرت بعيدًا، فأنا أعرف طباع «ألين». لقد قتل شخصًا من قبل، شهدت ذلك بعيني. تسعفني علاقتي بـ«ألين» كثيرًا في الشارع، لا أدَّعي أننا أصدقاء، لكن مجرد ذكر اسمه كافٍ لنجاتي من أي ورطة.

- لماذا عليَّ العمل اليوم بحق الجحيم؟

صاحت الفتاة به. كان بُؤبؤي عينيها متسعان كفنجان، من الواضح أنها مُنتشية، يا لها من غبية!

- لأنني قلت ذلك أيتها الساقطة. مَن تحسبين نفسك؟ إياكِ والتمادي في الحديث حتى إن كنتِ مُنتشية.

- لا أرى داعٍ للعمل اليوم. لم أنل أجازة منذ أسبوعين يا «ألين». ماذا عن فرجي، ألا يحتاج إلىً الراحة؟

- اللعنة عليكِ.

دفعها، فسقطت على وجهها وسط الطريق. ناورت إحدى السيارات لتجنُّب دهسها، وصاح سائقها في «ألين» وهو يبتعد.

قال «ألين»:

- اللعنة عليكِ وعلى فرجكِ. أيتها القذرة!

ثم انحنى وجذبها من شعرها.

هذه مشكلة العاهرات البيضاوات، لا يعرفن متى يصمتن. والقوَّادون لا يفوِّتون فرصة، إنهم أجلاف، عادة ما يلطمونهن، وإذا لم يكفِ ذلك يشبعوهن ضربًا بقدر ما

يتطلب الأمر.

- لكنكِ لم تشتغلِ البارحة عندما منحكِ الزبون ثلاثمائة راندًا بقشيشًا. لا تحسبينني مغفلًا أيتها العاهرة! أنا أعرف ما جرى. لا يمكنكِ إخفاء شيء عنّي. شعركِ الناعم هذا لن يجدي معي. تذكري أنك لستِ في «جوهانسبرج».

كان يصيح وهو يواصل صفعها.

- سأذبحكِ بسبب لسانكِ هذا، عليكِ الانتباه إلى ما يخرج من فمك!

في تلك الأثناء، كان قد أصابها بقطع أسفل عينها اليُسرى، وملأ وجهها بالكدمات، كما تمزَّقت ملابسها. قاد «ألين» الفتاة من قفاها نحو شقّته الواقعة في الشارع نفسه، بينما الناس يمرون بنا دون اهتمام كأن شيئًا لا يجري.

- ماذا تريد بحق الجحيم؟

قالها عند عبوره من جانبي، فأخرجت له أربعين راندًا، كان لا يفهم إلا لغة النقود. لم يرد، فقط أشار برأسه. كانت الفتاة البيضاء ما تزال تنزف، لكنها لم تبكِ.

- سأضطر إلى ذبحكِ يومًا، أيتها العاهرة الغبية!

دفعها، فسقطت على أريكة قذرة، وقفزت القطط هاربة في فزع. كل ذلك وما تزال الفتاة صامتة.

- اذهبي ونظفي نفسكِ قبل أن أضربكِ ثانيةً!

صاح والشر يتطاير من عينيه. وعند نهوضها ركل مؤخرتها بقوة فسقطت على الأرض وشرعت تبكي.

- انهضي أيتها الساقطة! انهضي أيتها القذرة اللعينة!

نهضَت ببطء وذهبَت إلى المرحاض.

- والآن، ماذا تريد؟ ومَن سمح لك بالجلوس؟ ارفع مؤخرتك القذرة، هيَّا انهض!

قلت ناظرًا إلى قدميه:

- أحتاج إلى حذاء يا «ألين».

- عليك اللعنة، لماذا لم تأتِ البارحة؟

انتظرت صفعة لم تأتِ. قال:

- ماذا بك بحق الجحيم؟ انظر إليَّ عندما أحدثك!

رفع ذقني بيده. فنظرت إليه، محاولًا إخفاء الرعب الكامن في عينيَّ. ثم ابتسم - على غير المتوقع - لتظهر أسنانه المحشوة ذهبًا.

- تعرف أنك فتاي المفضل، أليس كذلك؟ أين النقود؟

ناولته الورقات المُبتلَّة.

- انتظر هنا، ولا تجلس. سألقي نظرة على حجرة النوم.

على الأرض من حولي صناديق تحوي سلعًا مسروقة؛ أشياء كسبها «ألين» - أو أيًّا كان الفاعل - من السطو على المنازل. وفي زاوية الحجرة رأيت زوجي أحذية من طراز «ريبوك» بمقاس ممتاز، بديا كأنهما يناديانني، لكنه عاد بزوجي شباشب لا

تزيد قيمتهما على عشرة راندات. قذفني بالشباشب وشدد على ضرورة العودة بعد ثلاثة أيام للحصول على حذاء لائق. كان ذلك يعني ضرورة العودة خلال ثلاثة أيام بمزيد من النقود. حينها، سأحرص على عدم التفوه بكلمة عن اليوم، وإلا أبرحني ضربًا. هذا هو «ألين»؛ إياك أن تذكره بشيء مُطلقًا، فهو يعرف كل شيء. خلعت حذائي المثقوب من الأسفل، وارتديت الشبشب النحيل. طلب «ألين» الحذاء القديم. ترددت لحظة، لكنني رضخت سريعًا. لماذا يريده؟ غادرت الشقة، مُسلّيًا نفسي باعتبار ذلك المبلغ مقابل حماية، وليس مالًا مُهدرًا.

يمكنني السير مطمئنًا بعض الشيء، لعلمي أن مالي يسكن جيب «ألين». النقود هي لغته، لا يتذكر شيئًا سواها، لا يُولي غيرها أهمية. لن أندهش إن سأل تلك الفتاة غدًا عن سبب الكدمات. ستضطر ساعتها إلى اختلاق قصة عن اعتداء شخص آخر عليها، خشية إزعاجه ثانيةً، وحتى لا ينشب جدال غبي آخر، تسيل بعده الدماء والدموع من جديد. «ألين» مختل تمامًا. لا أعرف إن كان مجنونًا، أم يهوى خداع البشر.

شعرت بالتوتر، فسرت تجاه الجسر عساني أقابل «ليزيل».

النقود كل شيء، تعلمت ذلك من «ألين». إنها كل شيء لأنك تشتري بها المنزل وتتحكم في الآخرين. عندما ترتدي ملابس لائقة، يحترمك الكبار، لكن طالما بقيت على حالي، مشردًا رث الثياب، لن يمنحني «ألين» ملابس لائقة؛ لأنني بذلك قد أشبهه. فليس بين معارفه أحد يشبهه، إنه يحرص على ذلك، حتى وإن اضطر إلى تجريدك من ملابسك بنفسه. يجب أن يفوقك «ألين» أناقة دومًا، وأن يفوقك ذكاءً أيضًا. هكذا هو. هكذا هم الكبار. لا يرتدي غير أحذية «نايكي»، وبناطيل جينز، وقمصانًا باهظة الثمن، ولا يمنحني سوى ملابس توشك أن تهترئ، كي لا أستغنى عنه أبدًا، فأقصده من أجل المزيد، وأنفق مالي عليه، لكنني لا أملك خيارًا، أعرف ذلك. «ألين» هو الضمان الوحيد لسلامتي في الطرقات، حيث يعيش كمٌّ هائل من الوحوش المفترسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

لم أجد «ليزيل» عند الجسر. فتسكَّعتُ حول متجر «ما زاكيس» بصُحبة «سيلي» الذي اشترى لي شراب شعير، وأعدَّ لي سيجارة حشيش.

قال ناصحًا:

- احذر الخنازير.

- لا تقلق فأنا حذر.

- أين كنت الليلة الماضية؟

- لماذا؟

- كان «جيرالد» في سيارة الأجرة الخاصة به مع شاب آخر، ونعته ذلك الشاب بالسائق، ففتك به «جيرالد».

- مَن هذا الغبي؟

- إنه فتى «ليزيل». أنت تعرفه. يظن نفسه قويًّا لكونه فردًا في عصابة «هارد ليفينجس».

- نعم، أعرفه. إنه مُغفَّل حقيقي.

- أراهن أنك مُعجب بـ«ليزيل».

- ماذا تقصد؟

- كف عن الهراء. أنت لا تشتري الحشيش إلا منها.

- نعم، فهي لا تضطرني إلى الانتظار كما تفعلون.

- يا لك من مُحتال! بل ترغب في مُضاجعتها، هذا كل ما في الأمر.

- غير صحيح.

- أنت إنسان ماكر. لا يعرف أحد فيما تفكر.

أشعل سيجارة الحشيش وأخذ نفسًا طويلًا.. بلغت مسامعنا أغنية «شيبوبو» لفريق «تكزي» آتية من متجر «ما زاكيس». دخنت الحشيش وكتمته في فمي، هزَّ «سيلي» رأسه مع إيقاع الأغنية، كان راقصًا ماهرًا، يمكنه التفوق على أي شخص، وله أسلوبه الخاص؛ لذا يميل إليه «جيرالد».

وصل «جيرالد» بسيارته الـ«فورد جرانادا» البيضاء. أصدر ضوضاء صاخبة قبل أن يتوقف أمام كوخه، غير بعيد عن موضع جلوسنا. وصاح «جيرالد» وهو يغادر السيارة:

- هيَّا ارقص يا «سيلي»!

- حسنًا يا «جيرالد»!

نهض «سيلي» للرقص. بدأت أُشاهده من على الدكَّة، تختلط قدماه وتتشابكان على رقصة «البانتسولا»، بينما تعلو وجهه نظرة ناعسة أنيقة. وقبل سيره نحو «جيرالد» ناولني السيجارة وقطعة حشيش أخرى.

- لا تشربها كلها، إياك أن تفعل.

شربت السيجارة إلى أن لسعت النار أصابعي. أعقبت «شيبوبو» أغنية أخرى لـ»تكزي» لا أذكر اسمها. لففت سيجارة جديدة، تاركًا قطعة حشيش لـ«سيلي» الذي اختفى داخل كوخ مع «جيرالد». دخَّنتُ السيجارة ببطء، منتظرًا عودته بصبر، فانتهى بي الأمر إلى شرب الحشيش كله. سالت الأفكار في رأسي كالماء. جلست منصتًا إلى ضوضاء المقيمين أسفل الجسر. كان كل شيء مُشوَّشًا. اقتربت منِّي طفلة عارية تمامًا، جلست على الدكَّة إلى جواري، حدَّق كل منَّا في الآخر فترة من الزمن، مع ابتسامة غبية تحتل وجهي.

- أيتها الصغيرة! ارتدي ملابسكِ أيتها الحمقاء!

صاح «جيرالد»، فأسرعت الطفلة مبتعدة.

- ماذا تنتظر؟!

جاءني سؤاله من أعلى. لم يكن «سيلي» قد غادر الحجرة بعد، لكني لمحت حمامة تحوم فوق كوخ «جيرالد». إن الشر باقٍ إلى ما لا نهاية.

أجبته بشيء من الارتباك:

- «سيلي».

- بماذا ناديتني أيها المعتوه؟

- معذرة، لم أقصد ذلك يا «جيرالد».

- بالتأكيد لم تقصد ذلك، سأُمزِّقك، أنا لست بزنجي أيها اللعين.

قالها، ولَكَمَ وجهي، فعُدتُ إلى ما غبتُ عنه من وعي. سقطتُ أرضًا، لكنني تحاملت على نفسي، ونهضت مسرعًا للهرب. ركضتُ مبتعدًا بأقصى سرعة. وعلى بُعد أبنية قليلة من الجسر انتبهتُ إلى قدمي الحافيتين. انتظرت ما لا يقل عن خمس دقائق قبل العودة. لم يكن «جيرالد» هناك، هكذا ظننت، بينما ظلت سيارته في مكانها. التقطتُ الشبشب، وبدأتُ أركض.

- أنت، توقف!

سمعت نداءه من خلفي، لكنني واصلتُ الهرب. وفور الابتعاد عن الجسر، أبطأت وحاولت تمالُك أعصابي.

حين شعرت بالظمأ، قصدت مرحاضًا عموميًّا في شارع «بري». هناك نظر إليَّ حارس أمن يعمل قرب ساحة وقوف السيارات بطريقة مضحكة، كأنني لص، أو ما شابه، لكنه تركني وشأني. كان ماء الحوض ساخنًا يوشك على الغليان، عانيت لغسل وجهي، وشربت حتى امتلأت معدتي وتجشَّأتُ. عندها تنهَّدتُ وشعرت بالانتشاء مجددًا. كانت حرارة الهواء والرطوبة لا تُحتمل. تجرَّعت رشفة كبيرة أخرى، مصغيًا هذه المرَّة إلى صوت مرور الماء المنعش في حلقي. لكم أحب الماء! فكَّرت في ذلك وأنا أنظر في المرآة، لكنني لا أحتمل إطالة النظر في المرآة، فزُرقة عيني تُذكرني بما تُثيره في أذهان الآخرين.

لاحظت خيالًا ضخمًا يقترب من مدخل المرحاض. فشرعت في المغادرة لأجدني في مواجهة حارس الأمن وكلب «روتفيلر» مرخي الزمام. كان لديَّ قوة خاصة؛

علاقة ما تربطني بالكلاب، فمنذ أن عضّني كلب للمرة الأولى وأنا في السابعة من عُمري لم تزعجني الكلاب قط.. شد الحارس وثاق الكلب وأرخاه مرَّات عدَّة دون جدوى. أما أنا فلم أنطق بكلمة، فقط سرتُ مبتعدًا.

سرتُ في شوارع المدينة هائمًا. مررت بالمحطة، والمكتبة، واستمتعت بقيلولة في الحديقة. لم يشغل بالي حينها غير التمتع بانتشائي. طارت فوقي حمامات سمينات وأنا مُستلقٍ فوق العشب، ربما كانوا مجرمين، أو سياسيين أنذال. اتخذ السحاب أشكالًا مختلفة، وتبخر في الهواء الساخن. سيكون تدخين سيجارة أخرى اليوم أمرًا لطيفًا، لكن لا يسعني العودة إلى «جيرالد» خاوي اليدين.

سرتُ عائدًا إلى «سي بوينت»، حيث الهواء المشبع برائحة البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

قضيتُ يومين عصيبين؛ لم أصطد زبونًا واحدًا. كان الإفلاس يمنعني من مواجهة «ألين»، أو الذهاب إلى أي مكان في محيط الجسر. تمشَّيت في «سي بوينت» قلقًا، أترقَّب ظهور سيارة «جيرالد» البيضاء. لا أستطيع الذهاب إلى البنك، فلتلك الأماكن قوانينها. أخبرتني «جويس» أن لسحب الأموال أيامًا محددة، ليست منها العطلات الأسبوعية، كما عليك ذكر سبب سحب المال، تمامًا مثلما تفعل العصابات. هؤلاء المجرمون الأذكياء ذوو البدل الإيطالية أناس قذرون. كل الكبار سواء، يريدون التحكم في كل شيء أينما كانوا. كان كل مطلبي من الحياة حذاءً لائقًا، وصلحًا مع «جيرالد»، وسيجارة حشيش تحلق بي في السماء. أهذا كثير؟

- تمهَّل!

قفز «بافانا» على ظهري فجأة، وأنا جالس قرب مراحيض الرجال المُلحقة بالشاطئ. صِحتُ به:

- ابتعد عنِّي!

خفق قلبي بقوة حتى كاد يحطم صدري. في البداية ضحك «بافانا»، ثم توقف حين أدرك أني لا أمزح.

- لكَ عندي مفاجأة جيدة.

- ماذا؟ منذ متى تأتيني بشيء جيد؟

- تعالَ فقط، لا تقلق يا أخي.

- أنا مرهق تمامًا. لن أسير إلى المدينة. وها هي الشمس تغرب. اتركني وشأني. لديَّ ما يكفيني من المشاكل.

- أعدك ألا نبتعد يا أخي. سنذهب إلى أول شاطئ «صن سيت»، سنذهب إلى هناك فقط. ليس ذلك ببعيد.

- ما الأمر، أخبرني أولًا! لن أُورِّط نفسي في مشاكل مع الشرطة من أجلك.

- لا، ليس الأمر كذلك.

- إذًا فكيف هو؟

- فقط تعالَ يا أخي. لا ترفض رجائي.

قمت مترددًا، وتبعته حتى شاطئ «صن سيت». هناك قدَّمني إلى ولدين ذوي بشرة بيضاء، يبدوان أكبر منَّا سنًّا، ولهما أنفان طويلان. يبدو أنهما ثريَّان، لا يجدان ما ينفقان المال فيه.

قلت مخاطبًا أطولهما:

- حسنًا، ماذا تريدان؟

- طريقتك عدوانية. هذا رائع! يمكنني مجاراتك في ذلك يا رجل.

- لا تخاطبهما هكذا يا أخي، نحن أصدقاء.

- اخرس يا «بافانا». ليسا بأصدقائك. انظر إلى ملابسك، ثم انظر إلى ملابسهما.

- أنتما رائعان. أليس كذلك؟ إنها ثقافة الشوارع. تلك الحياة الجامحة. تعيشان في المدينة الإسمنتية المليئة بالأبراج، وتجمعان الطعام من الفضلات. اللعنة، ليس لدينا ما نقدمه لكما. اللعنة، بل تلك إهانة لكما. فأنتما كالقطط البرية. إنكما تقاتلان من أجل البقاء يا رجل.

كان «بافانا» يبتسم ويهزُّ رأسه وهما يتحدثان. أما أنا فلم أفهم كثيرًا مما يقولانه. قال الآخر:

- صحيح، لذا نرغب في التعلم منكما، والاستفادة من بحر خبراتكما. أعني أننا نطمع في نزهة معكما يا شباب.

- لدينا عقار هلوسة جيد. كما سنوفر لكما طعامَ الليلة، بشرط قضاء الوقت كله في الشارع. أعني أننا سنُلازمكما، خُذانا إلى كل الأماكن التي تقصدانها للمتعة ليلًا. هل تفهمان قصدي؟ نريدها تجربة كاملة غير ناقصة.

- ماذا تقول؟ أتريدان منِّي تعاطي المخدرات معكما؟

اقتحم «بافانا» الحديث بحماسة:

- أنا مستعد لذلك.

- اخرس.

- حسنًا، لديكما تلك الروح العدوانية المُتأجِّجة. هكذا الحياة التي تحيانها إذًا، تطبقان مبدأ «البقاء للأقوى»، صحيح؟ رائع، أتفهم ذلك. يمكنني مشاركتكما ذلك إن أردتما.

أخبرته:

- أنصت جيدًا، لن أشرب المخدرات معكما.

قال القصير:

- لكنها ستكون تجربة رائعة. ألا تود خوض مغامرة شيقة؟ فقط فكِّر في الأمر. اعتبرها تجربة فنية جماعية، فرصة وجاءتك.

أجبته:

- ماذا تقولان؟ أنا جائع، لا أريد الاستمرار في هذا الهراء.

قال «بافانا»:

- يقولان إنهما سيطعماننا يا أخي.

سألتهما:

- ثم ماذا؟

- ثم نسعد بنزهة رائعة.

بدأت السير جهة الحديقة، لكن «بافانا» لحق بي، فقلت مُلوِّحًا بقبضتي:

- ابتعد عن وجهي، أيها الأحمق، فلتذهب إن كنت تريد تعاطي المخدرات.

اتركني وشأني، وسمعته يحدثهما عن فتى آخر يعرفه، ثم اتجهوا نحو «سيفين إليفين»، حيث الأنوار ساطعة دومًا.

مشيتَ نحو شاطئ «بروكين باث». كان الشبشب يصدر صوت مزعج، خلعته، ووضعته في جيب سُترتي. مشيتُ على الشاطئ، شعرتُ بالقواقع المُهشّمة أسفل قدمي، كانت تصدر طقطقة تثير حزني. أكره الحزن، فمعناه أن الدمع ليس ببعيد. ذلك أمر لا يمكنني السماح به، فالرجال لا يبكون. متى رأيت دموع «ألين»؟ لم يحدث قط، أو «جيرالد»؟ لم يحدث قط، أو «سيلي»؟ الرجال لا يبكون. وأنا - إذ أوشك أن أبلغ ثلاثة عشر عامًا - عليَّ ألا أبكي أيضًا. عليَّ أن أكون قويًّا، عليَّ أن أكون رجلًا. وهكذا يفعل الرجال؛ الرجال لا يبكون، لأن الدمع يُزري بالمرء؛ تنتفخ عيناك، ويسيل مخاطك القذر من أنفك. الكبار مهندمون. مظهرهم حسن على الدوام، ذلك لأنهم لا يبكون. متى رأى أحد كبيرًا يجوب الشوارع باكيًا؟ لم يحدث قط. حتى أبي لم يبكِ قط. كذلك أمي، ما بكت قط. كان دمعها الدم، يسيل حين يضربها أبي فيُدميها.

كانت معدتي تصدر أصواتًا بشعة خلال سيري على الشاطئ. ذهبت إلى صناديق القمامة أُفتِّش فيها. لم أجد سوى عبوات فارغة، وزجاجات تحوي قطرات من المشروبات الغازية. وبالقرب من أحد الصناديق التي أُفتِّشها يجلس رجلان لهما هيئة المُشرَّدين، كانا يُراقبانني باهتمام وهما يتناولان شرابًا ما.

سألني أحدهما:

- جائع؟

توجَّهتُ إليهما. كانا يجلسان أسفل عمود إنارة. قام السائل ليصافحني:

- ما اسمك؟

- «آزوري».

- اجلس.

جلست بجوارهما، متجنبًا بطَّانيتهما في الوقت نفسه.

- خذ بعض الشراب.

عرض عليَّ الآخر زجاجة نبيذ رخيص سعة لترين، إلا أنها نصف فارغة. شربت منها جرعة كبيرة. ثم دعاني:

- تعالَ هنا. استند إلى الحائط، إنه ما يزال دافئًا من أثر الشمس. كان يومًا حارًّا، أليس كذلك؟

- نعم، كان كذلك.

واصلنا الشرب فترة. كركرت معدة الآخر هي الأخرى. ثم سعل وبصق كتلة خضراءَ من حلقه. من الواضح أنهما أيضًا لا يجدان قوت يومهما. جلست معهما على الرغم من أنني لم أشرب إلا القليل، فالنبيذ - سواء الأبيض أو غيره - يُصيبني بالدُّوَار.

قال الذي ناداني:

- أنت لا تشرب كثيرًا، أليس كذلك؟ بالمناسبة، أنا «ديفيد»، وهذا «بيتر».

أدركت من اللهجة أنهما من متحدثي الأفريقانية، لكنني لم أُبادر بالتحدث بها. فهكذا يستغفلك الكبار. إذا كنت حريصًا على إرضائهم، وبادرت بالتحية لكسب صداقتهم،

يحسبونك أحمق، ويطمعون في مُضاجعتك.
تحدَّثتُ بدوري:
- ستكون ليلة دافئة.
قال «بيتر»:
- سننام جيدًا.
رد «ديفيد»:
- بشرط ألا تصدر شخيرًا.
- دعني وشأني، فأنا مُتعَب.
سألني «بيتر»:
- هل تتحدث الأفريقانية؟
هززتُ رأسي نافيًا.
- أنت إنجليزي؟
- لا، «سوتو».
سأل «ديفيد»:
- من «جوهانسبرج»؟
- أجل.
- خمَّنت ذلك. لا يقابل المرء كثيرًا من شعب «السوتو» في «كيب تاون». كل داكني البشرة هنا يتحدثون اللغة الـ»هوسية».
ضربت موجةٌ ضخمةٌ الصخور بينما نجلس صامتين ونواصل شرب النبيذ.
- لاحظت أنك لا تشرب كثيرًا.
قالها ثانية، فشربت جرعة كبيرة.
- يصيبني الشراب بالصداع.
قال «بيتر» بالأفريقانية ضاحكًا:
- دُوَار من أثر الخمر!
ثم سعل ثانية وبصق كتلة كبيرة خضراءَ.
- لا أستطيع شرب المزيدِ يا «ديفيد»، معدتي تؤلمني.
هكذا أصبح النبيذ الباقي من نصيبي أنا و»ديفيد»، الذي واصل الحديث معي باللغة نفسها.
- هل أنت جائع؟
حرَّكت رأسي نافيًا.
- هل سكرت؟
أومأت برأسي، وتجشَّأت.

- ستتحسن الآن. يصيبني ذلك أيضًا، ولا أعرف له سببًا.

تعثرت وأنا أحاول النهوض.

قال «ديفيد»:

- على مهلك.

فككت بنطالي، وتبوَّلت أسفل الإضاءة. كان الضوء يجهد عينيَّ. تبوَّلت كثيرًا، ثم تنهَّدت بارتياح. وعندما انتهيت قال «ديفيد»:

- للتبوُّل أحيانًا متعة لا مثيل لها.

سقطُ إلى جانبه على الرمال، كان رأسي يدور من أثر النبيذ.

- أين حذاؤك؟

أخرجت الشبشب من جيبي.

قال بنبرة تقريرية:

- هذا ليس بحذاء.

- لقد فقدت حذائي.

أعدتُ الشبشب بحرص إلى جيبسُترتي.

سأل مُتثائبًا:

- أين فقدته؟

- في المدينة.

كان «بيتر» نائمًا الآن، وزحف «ديفيد» إلى جانبه. غفوت لبعض الوقت وأنا جالس إلى جانبهما، لكنني نهضت بعد فترة يسيرة. مشيتُ مُترنِّحًا حتى حافة الماء، وفتحت فمي فخرجت نافورة من خليط بُني. تقيَّأتُ إلى أن أصبحت معدتي في حجم ثمرة البازلاء. ثم اغترفت من بُقعة أخرى شيئًا من ماء البحر غسلت به فمي. وسرعان ما عاود الجوع هجومه، لكن الوقت كان متأخرًا، كما كنت مُجهدًا.

لم أستطع تسلق الرمال إلى مكان نومي؛ لذا صعدت الدرج نحو طريق مُمهَّد للمُشاة. يطلقون عليه اسمًا إنجليزيًّا فخمًا، لا أذكره الآن. هي كلمة تعلمتها في المدرسة مرَّة. ولكيلا أستيقظ بالدُّوَار اللعين نفسه، مشيتُ حتى صنبور بجوار مراحيض الرجال، وشربت كثيرًا من المياه. تملأ المياه المعدة، لكنها لا تُشبع. ثم تيبَّس ظهري، وسرت عائدًا إلى حمَّام السباحة.

تمر سيارات قليلة في الشارع الرئيسي. كان الوقت متأخرًا والناس نائمين. شعرت بأنفاسي نتنة. قاومت الرغبة في التبوُّل ثانية. لم تكن تفصلني عن مكان نومي الآن مسافة كبيرة. كان الهواء شبه ضبابي. هبطُ «بروكين باث» إلى الركن المجاور لحمَّام السباحة. وسرتُ على القواقع القاسية، لكن قدمي قوية، لا تتمزَّق، ولا تنزف بسهولة. إلى جانب إحدى الشجيرات تبوَّلتُ كمية كبيرة. لم يكن لـ«بافانا» أثر هناك. أغلب الظن أنه مشغول بإفساد خلايا دماغه الآن.

تكوَّرتَ على مفرش بلاستيكي أخبئه قرب شجيرة، غطيت رأسي ووجهي بسُترتي الواسعة، ونمت كالصخرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

ما زلتُ عاجزًا عن اصطياد زبون، كما أخشى الذهاب إلى المدينة لغسل السيارات وركنها؛ فربما يراني «جيرالد». عيونه في المدينة لا تنام؛ من الحمام والبشر، كلهم سواء، كلهم في النهاية جُرذان، يشون بك مقابل فُتات خبز. سيخبره أحدهم: «لن تُصدِّقني، أتدري مَن رأيت اليوم في المدينة يا «جيرالد»؟ أتذكر ذلك الفتى الذي دعاك بالزنجي؟»، عندها سيطلق «جيرالد» كلابه - وهو في قمَّة السعادة - لتنهش لحمي. سيأمرهم: «اضربوه إلى أن يسيل الدم من عيونه الزرق. انزعوا عنه ضحكته البريئة، كيف لذلك الملعون الصغير أن ينعتني بالزنجي؟ مَن يظن نفسه بحق الجحيم؟ ألا يعرف مَن أنا؟ ألا يعرف عصابة «توينتي إيت»؟ ألا يدري ما يمكنني فعله به؟»، وبعدها سيتوجَّب عليَّ الاعتذار لـ«جيرالد»، فـ«جيرالد» مُلوَّن أنيق بشعر ناعم، وبشرة فاتحة. ثم سيتوجَّب عليَّ إعطاؤه بعض النقود؛ لأن يدي أقذر من أن تشتري له شيئًا.

أما «ألين»، فلا يمكنني الاقتراب منه بأي حال دون مال. ويمنعني الخجل من لقاء «جويس» دون حذاء، كيف أُفسِّر لها الأمر؟ وإن كانت لا تزال تضع لي الطعام كل صباح.

السماء مظلمة. تُضيئُها النجوم. رحت أتسكَّع حول الحديقة في «سي بوينت» أملًا في أن يلتقطني أحد المثليين المحترفين، لكن زُوَّار الليل يأتون بحثًا عن جنس مجاني سريع. فرص كسب المال تكاد تنعدم، لكني أثق بقدرتي على الإقناع فقط إن أحسنت الاختيار. فبين هؤلاء الأوغاد مَن سيسرون أيَّما سرور بوطء مؤخرتي مقابل مبلغ زهيد.

سرتُ ببطء حول الأشجار. رأيت نحو ستة أشخاص، أخرج أحدهم عضوه من شدَّة هياجه، رأيته يُداعبه. من الواضح أن الجميع يتجنبوه؛ سيُضاجع أي شيء يتحرك من فرط يأسه. لن يدفع مثل هذا الشخص مالًا.

وقف الآخرون في بُقع شبه مظلمة، وعندما اقتربت منهم أمسكوا بأعضائهم من فوق ملابسهم. خلعتُ السُّترة والـ«تيشيرت» وجلستُ على دكَّة في مواجهة الشجر، فتحت ذراعيَّ لأريحهما أعلى الدكَّة. وبعد فترة قصيرة جاء أحدهم وجلس بجانبي.

همستُ له:

- سأفعل أي شيء مقابل خمسين راندًا.

- أي شيء؟

- أي شيء أستطيع فعله.

سأل بنعومة وسخرية في الوقت نفسه:

- وما الذي تستطيع فعله؟

- يتوقف ذلك على ما يُطلب منِّي.

- ماذا لو أردت مضاجعتك؟

- لا بأس.

- أتعني أن ذلك ممكن؟

- نعم، يمكنك ذلك لو أردت، مقابل خمسين راندًا.

- خمسون راندًا، حسنًا. لا تشغل بالك بالمال. ماذا لو طلبت مضاجعتك في سيارتي؟

- يمكنك أيضًا فعل ذلك أينما تريد.

- بالطبع أريد.

مشينا إلى سيارته، ورأيت خاتمه يلمع في الظلام.

- هل ترتدي الدبلة طوال الوقت؟

قلتها كي لا يستهين بأمري ويحاول التهرب من الدفع.

- هل ستصمت إن أعطيتك ستين راندًا؟

- أجل، سأصمت.

المتزوجون هم الأقوى شهوة والأكثر عنفًا دائمًا. اصطحبني الزبون في سيارة عائلية إلى شاطئ مظلم قُرب «في أند دي ووتر فرونت». كانت سيارتنا هي الوحيدة هناك. أخذني إلى المقعد الخلفي، ثم دهن جسدي بزيت الطبخ وافترسني كوحش. أخذت أعضّ على المقعد المُواجه لي، بينما هو ينخر ويئنُّ. استمر ذلك ساعة على الأقل قبل أن يقذف في الواقي الذكري. على الفور أغلق سحاب بنطاله، وأخرج حافظة نقوده.

- هذا يوم سعدك. معي ورقتان فئة عشرين، وورقة فئة خمسين، لا غير.

أشرق وجهي على الرغم من التهاب مؤخرتي.

- مهلًا، لقد وجدت بعض الفكة.

لم يستطع كبح شهوة الانتقام بعد حديثي عن زواجه. اللعنة على لساني، لم أرتكب ذلك الخطأ من قبل. منحني ورقة بخمسين راندًا، وورقتين فئة خمسة راندات. قلت:

- أتودُّ تكرار ذلك لاحقًا؟

- ربما.

- حسنًا، ستجدني هنا كل ليلة.

- عظيم، كانت تجربة رائعة، أما الآن فعليَّ الذهاب.

قالها وفتح الباب كي أغادر. ثم جلس على المقعد الأمامي وانطلق بشاحنته مبتعدًا. مشيت جهة الماء، وخلعت بنطالي. جلست في حوض ضحل، وتركت الماء البارد يغمر جسدي حتى الخصر. مكثت حتى تخدَّرت مؤخرتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

يقف «ألين» في مكانه المُعتاد قُرب الفتاة البيضاء، رأيتُ خِيَاطة أسفل عينها اليُسرى، وما يزال بإمكان نظرة متفحصة أن تلحظ بعض الكدمات خلف مكياجها الصارخ. كنتُ مُتوتِّرًا لأني لم أحضر بعد الأيام الثلاثة التي حددها، إضافة إلى ارتدائه نظَّارته الـ»ريبان» السوداء؛ فلذلك دلالة من ثلاثة؛ إما أنه مُنتشٍ من أثر المخدر، وإما مصاب بكدمة، وإما سيئ المزاج. وعلى الرغم من كل ذلك، ذهبت إليه.

- هل يمكنني الجلوس يا «ألين»؟

- ماذا تريد بحق الجحيم؟

- قلت إن بإمكاني...

- أقول أشياء كثيرة، لكن هل تطيعني دومًا في كل ما أقول؟

- أجل، أفعل ذلك يا «ألين».

- لذا فأنت في الشوارع، وأنا هنا. أيها الغبي اللعين، استرجل ليلًا.

- لكنني ظننتك..

- أظننت حقًّا أنني سأجلب لك حذاءً، أيها القذر؟

لم أرد.

- هل في شبه من أُمَّكَ؟

هززتُ رأسي نافيًا.

- اسمع، يمكنني توفير تليفزيون، أو «هاي فاي»، أو أي شيء ثمين بسعر لا يقاوم إن أردت الشراء، لكن الأحذية والقمصان، وما شابه.. انس، اذهب إلى الجحيم أيها السافل. هل تفهمني؟

- أجل يا «ألين».

- هل ترى ملابسي؟

- أجل يا «ألين».

- لا، انظر جيدًا.. «ريبان»، و»جوتشي»، و»أرماني»، و»نايكي».

قالها مشيرًا إلى ملابسه، فأومأت بارتباك.

- والآن، انظر إلى ملابسك، وقارنها بملابسي. اللعنة عليك، أيها النتن. اغرُب عن وجهي الآن. أنا لستُ جمعية خيرية.

نهضت، وأسرعت مبتعدًا.

مشيتُ باتجاه المدينة، وأنا أدعو باستمرار ألا يراني «جيرالد» وجُرذانه. ذهبت إلى متجر في «لونج ستريت» يُدعى «سكند تايم أروند»، يبيع ملابسَ مستعملة بحالة جيدة. تعمل فيه بائعة قنوعة؛ تسمح لك بالتجول بحرية، والحصول على ما تريد، مهما كان مظهرك. عثرت هناك على حذاء من الجلد المدبوغ بدا لي مقاسه مناسبًا.

وعلى الرغم من رقم الخمسة والستين المُدوَّن على لاصقة التسعيرة، حملته معي إلى البائعة.

قلت بأدب:

- أحتاج إلى هذا الحذاء.

- كم معك من المال؟

- ستون.

أخذت أصلي وأنا أُخرِج النقود.

نظرت تتفحَّصني من فوق نظَّارة تستند إلى طرف أنفها.

- حسنًا.

أعطيتها المال، فوضعته في دُرج نقود من النوع الذي يصدر ضجيجًا.

قلت ممتنًّا:

- شكرًا لكِ.

خلعت الشبشب، ووضعته في جيب السُّترة. وارتديت الحذاء بلهفة وهي تراقبني.

- هذا من أجلك.

حين رفعت ظهري رأيت على المنضدة زوجين من الجوارب.

- لكنني لا أملك أية نقود.

- أعرف ذلك، لا يهم.

تناولت الجوارب، وفككت الأربطة.

أصدرت قدماي الجافَّتان طقطقة وأنا أرتدي الجوارب. ثم ربطت الحذاء على نحو لائق.

- يمكنني السير إلى نهاية العالم بهذا الحذاء، شكرًا لكِ.

شعرت بنظراتها تتابعني وأنا أغادر المتجر. ذهبت إلى شارع «برِي»، القريب من المسجد. يتسكَّع هناك فتى أعرفه يُدعى «فينسينت»، ينام ليلًا على باب أحد المتاجر، هو أيضًا من «جوهانسبرج».

قال حين رآني:

-لم أرك منذ فترة يا عزيزي.

- أعيش في «سي بوينت» الآن، قسوة المدينة تفوق احتمالي.

- لكن جميع الأحداث تجري هنا. أنت تعرفني، أحب المدن الكبيرة.

- أجل، لكن الحياة صعبة في «كيب تاون».. فكر قليلًا يا رجل.

- «كيب تاون» أفضل من «سي بوينت». على الأقل لا تضطر إلى التعامل مع جميع تلك العصابات.

كان يكبرني سنًّا.

- غير صحيح، فأنا لا أختلط بهم.

- ما قصة هذا الحذاء يا أخي؟

- ممم، كنت أحتاج إلى حذاء، وهذا كل ما استطعت الحصول عليه.

- كان يمكنني تدبير ذلك الأمر، أنت تعرف هذا.

- أجل، لكن عليَّ وضع «ألين» في الحسبان.

- آه، نسيت أمره. ألا يزال يثير الرعب في الحي؟

- أجل، إنها منطقته. عليَّ استئذانه أولًا.

جلسنا أسفل نخلة، فأخرج علبة تونة وشيبسي، وقسم رغيف خبز نصفين. أكلنا صامتين، وأنهينا الطعام سريعًا.

- ما الأمر يا أخي؟

- سأكون صريحًا معك يا رجل.

- ما الأمر؟

- يتناقل الناس إشاعة تقول إن «جيرالد» يسعى للوصول إليك.

سألته برعب:

- هل أنت جادٌّ؟

اكتفى بالنظر إليَّ.

- اللعنة.

- ماذا فعلت؟

- لا شيء.

- ماذا تعني بلا شيء؟

- لا شيء، هذا كل ما أعنيه. حسنًا، كنت أدخن سيجارة حشيش مع «سيلي»، ثم غادر بصحبة «جيرالد»، ولما عاد «جيرالد» وحده متوجهًا نحوي، ناديته بـ»سيلي» دون قصد. هذا كل ما حدث.

- اللعنة، أنت تعرف كم يكره ذلك الزنجي السود، لقد أهنته.

- نعم، لكنني لم أقصد ذلك؛ إنه مجرد خطأ بحق الجحيم، اللعنة، سيحطمني الآن بسبب ذلك.

- اسمع، كُفَّ عن الاختباء، فهو يبحث عنك. فقط اذهب واعتذر وأخبره أنك مستعد لفعل أي شيء يريده.

- اللعنة.

- هل معك نقود؟

- لا، أنفقتها للتَّوِّ على الحذاء.

- كانت بعض النقود ستجعل الأمر أكثر سهولة.

- أشكُّ في ذلك.

- لا تقلق يا أخي، ستظل حيًّا، لن يقتلك، أترى خطوط السكة الحديدية تلك؟

أشار إلى ندبة قديمة من ثماني غرَز على جانب رأسه.

- أجل.

- إنها من فعل «جيرالد». اسمع، لا تفكر أبدًا في الهرب، صدِّقني، لن تنجح في ذلك. هذا رجل يمتلك سيارة. سيحطمك ثم يقتلك إن فعلت ذلك.

كنت أتنفَّس بصعوبة.

- أعرف أنك خائف يا أخي، لكن اذهب، واخلع هذا الحذاء أولًا، أنت تعرف «جيرالد»، إنه مجنون، يظن أنه أبيضَ؛ لأن له شعرًا ناعمًا، وبشرة فاتحة. إن ذهبت إليه بحذائك هذا، وعينيك الزرقاوين، سيقتلك، سيصيح، سيقول: «مَن تظن نفسك بحق الجحيم؟ أتحاول أن تكون أبيضَ؟».

- لكنني لا أحاول ذلك.

- أعرف يا أخي، لقد أتينا من «ماشينجوفيل» معًا، أعرف ذلك، لكن هؤلاء الملاعين لا يعرفون، كان ليسعده امتلاك عينيك الزرقاوين، يدرك كل الناس ذلك إلا أنت. عليك التغلُّب على زُرقة عينيك.

- ماذا تعني؟

- أعني أن عليك أن تكون أكثر سوادًا.

- لكنني داكن البشرة. انظر إلى لوني. لا أختلف كثيرًا عن أولئك السود القادمين من نيجيريا.

- لا، أعني مزيدًا من السواد.. أريدك أن تكون أكثرنا سوادًا. عليك الانتباه إلى ما ترتديه، مثل هذا الحذاء، تلك الأشياء تضرُّك. تخيَّل شخصًا لا يعرفك جيدًا، ألن تكون هيئتك تلك أول ما يجذب انتباهه؟ صحيح؟

- صحيح.

- حينها سينظر إلى عينيك الزرقاوين وحذائك، وسيُفكِّر.. عينان زرقاوان، وحذاء من الجلد المدبوغ، ذلك الفتى يحاول أن يكون أبيضَ البشرة. هكذا يفكر الناس، هل تفهمني؟

- اللعنة. أظنني فهمت.

- لذا كان الناس يضربونك طوال عمرك؛ لأنك لست أسودَ البشرة بما يكفي في نظرهم.

- ما الذي يمكنني فعله؟ لماذا الحياة صعبة هكذا؟

- اللعنة، لا تحدثني هكذا، أنا أحاول مساعدتك. فقط انتبه إلى ملابسك، انظر إلى النيجيريين، وحاول التشبُّه بهم قدر الإمكان.

- حسنًا.

كنت أحاول جمع شتات نفسي.

- ربما عليك شراء أحد قمصانهم.

- هل جُننت؟ سيقتلني «ألين»، سيحطمني، سيقول: «من تحاول أن تكون؟»، ولن أجد ردًّا مناسبًا، دعك من تلك الفكرة. لكنني سأفكر في خطة.

- اخلع حذاءك. أعرف شخصًا يعرف شخصًا ما، سيساعدنا في الحصول على حذاء آخر لك، وسأبيع هذا في أحد متاجر الملابس المستعملة.

- لا تذهب إلى ذلك المتجر في «لونج ستريت».

- أي متجر؟

- المتجر المجاور لـ»ماما إفريقيا»، حيث تعمل المرأة اللطيفة. لقد اشتريته من هناك.

- حسنًا، فهمتك. لا، يمكنك الاحتفاظ بالجوارب.

أخرجت شبشبي من السُّترة.

- أذلك ما أعطاك إيَّاه «ألين»؟

- بالطبع، ومَن سواه؟!

- لا عجب في ذلك. هل أفلسك؟

- كالعادة.

- وغْدٌ آخر، يظن نفسه أبيضَ.

- كنت أظنه أبيضَ بالفعل.

- لا، يمكنك اكتشاف ذلك من عينيه. إنه يبدو أبيضَ، أعرف ذلك. لكن إن نظرت إليه عن قرب فسترى بعض الدماء الملونة. إنه يكرهها، وذلك سبب جنونه، تخيل أن تكون بالكاد أبيضًا. هل تفهم قصدي؟

- همممم.

- هذا سبب حماقته.

- هل رأيته مرة يضرب إحدى ساقطاته؟ لقد حطم تلك الفتاة البيضاء التي لم تستطع إبقاء فمها مغلقًا يومئذٍ.

- أجل، لكن الأمر أكبر من ذلك، إنه ذلك البياض، البياض الناقص يدمره. لماذا هو دائم التأنُّق في ظنك؟

- أفهم قصدك.

- جيد.

- الكبار مخبولون.

- لا، بل «كيب تاون» مخبولة. وأنا أعني ذلك.

- صحيح، إنها «كيب تاون»، لا الناس.

- والناس أيضًا، لا تنسَ الناس، هم أيضًا مخبولون.

- والآن عليَّ مواجهتهم.

قلتها مُتنهِّدًا.

- اسمع، عليك الذهاب، هذا أفضل. سيكون تسليم نفسك أمرًا جيدًا. هل تفهمني؟

- إذًا أمسك بي أولًا...

- لا يعرف أحد ما سيفعله بك.

- أتذكر ما سبَّبته لي عيني من مشاكل خلال الدراسة؟

- نعم، اعتادوا ضربك في المدرسة.

- لم يتغير شيء.

بدأت أقضم أظافري.

- عد ثانية خلال يومين.

- سأفعل إن كنت قادرًا على السير.

- لا تكن متشائمًا، فمَن يدري، ربما تعيش وتضحك على هذا يومًا ما.

نظرت إليه، واكتفيت بالصمت. اللعنة، ألا يدرك أن حياتي في خطر حقيقي!

- على كل حال، عد في غضون يومين، وستجد معي حذاءً لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

ذهبت أولًا إلى «ليزيل» أسفل الجسر. وقفت خارج كوخها وهي تنظر إليَّ.

- أين كنت؟

لم أنطق بكلمة واكتفيت بالنظر إليها. فقالت قبل أن تختفي داخل حجرتها:

- عليك الرحيل الآن، فهو يبحث عنك.

مشيت متوترًا باتجاه كوخ «جيرالد»، كانت سيارته البيضاء تقف خارج حجرته، وإلى جانبها أحدهم يغسلها، كانت أشعَّة الشمس تقسم الطريق نصفين، سرتُ في منتصف الضوء، رأيت متجر «ما زاكيس» مفتوحًا، وسمعت صوت فريق «تكزي» يتغنَّى بأغنية ما. كان «سيلي» يجلس على الدكَّة. رآني، لكنه لم يقل شيئًا. كنت أعرف ما يتوجَّب عليَّ فعله. عندما اتجهت إليه وسألته عن «جيرالد»، لَكَمَ وجهي، فسقطتُ أرضًا في ذهول تام.

- أنا متأسف، لكني مضطر إلى ذلك، فهو يراقبنا.

حاولت النهوض، فركلني في ضلوعي. كانت الشمس حارَّة، كانت الشمس حارقة.

أمرني:

- انهض.

نهضتُ، محتضنًا ضلوعي المُتكسِّرة، فلَكَمَني ثانيةً، لكمة خطافية قوية بيساره هذه المرة، فترنَّحتُ وسقطتُ على وجهي، ركل رأسي، وراح يدوسه، ثم جرَّني إلى الطريق المُمهَّد. رُحتُ أصرخ وتشبَّثتُ بساقه. كان يلكم وجهي بكلتا قبضتيه. فنزف الدم من أنفي، وسال المُخاط.

- آسف، أنا آسف يا «سيلي».

واصل ضرباته على الرغم من توسلاتي، فاضطررت في النهاية إلى ترك ساقه والتكوُّر على نفسي لحماية رأسي، عندها ركل ظهري ومزَّق سُترتي. لم تتوقف نغمات الموسيقى، ولا خبا لهيب الشمس.

- هذا يكفي.

أتى صوت «جيرالد»، ثم رأيته يسير متراقصًا على إيقاع «تكزي».

ابتعد «سيلي»، وعندما عجزت عن النهوض جلست.

- ماذا ظننت؟ أظننت أن بإمكانك قول ما تشاء والإفلات دون عقاب؟

كانت إحدى عاهرات «جيرالد» واقفة إلى جواره، بفستان قصير ضيق يكشف عن فخذيها الليِّنتين.

- لا ترحمه، علِّمه كيف يحترمك.

انكمشت جانبًا في انتظار ضربة أخرى لم تأتِ.

قال بنبرة شبه حانية:

- انهض.

أطعته وأنا أغطي وجهي بيدي.

- لن أُعرِّض يدي للاتِّساخ من أجل حُثالة مثلك.

- أنا متأسف يا «جيرالد».

وقبل أن أغلق فمي سقطت منه سنَّتان.

- هل ترى هذه السيارة؟

- نعم يا «جيرالد».

- اغسلها، ولمِّعها جيدًا. حين تفعل ذلك على وجه يرضيني، يمكنك معالجة إصابتك.

عرجت في مشيتي باتجاه السيارة، بتورُّم يحجب الرؤية تمامًا عن عين وقطع سيئ أسفل الأخرى. كان دمي يسيل، ولم أوقفه.

- لا تدع دمك النتن ينزف قُرب سيارتي.

ثم قذفني بسُترتي الممزقة.

التقطها وعقدتها حول خصري. أخبرني الفتى الذي كان ينظف السيارة أنه أتمَّ غسلها، وعليَّ أنا الاكتفاء بالتلميع.

- أنت أيها التعيس! لمعها ببطء وعناية.

وفتح فمه ليمرر لسانه خلال فراغ في أسنانه الأمامية سخرية منِّي.

علا صوت الموسيقى الصادرة من متجر «ما زاكيس».

سألته وأنا أبتلع دمي:

- أحتاج إلى سائل التلميع، أين أجده؟

أشار جهة حجرة «جيرالد». هناك، وقفت عند الباب منتظرًا.

صاحت بي امرأة مُلوَّنة:

- ماذا تريد؟

رأيت خلفها كومة أحذية تالفة على أحد الرفوف. يبدو أنها من الغنائم. ميَّزتُ من بينها حذائي القديم. تمنَّيتُ ألا يحولني «جيرالد» إلى جُرذ، أو حمامة.

- سائل تلميع لسيارة «جيرالد».

- ليس عندي. اسأل «جيرالد». والآن اغرُب عن وجهي.

أغلقت الباب. فعرجت باتجاه «جيرالد». كان على الدكَّة يُحادث «سيلي» والجُرذان الأخرى.

وقف أحدهم ينهرني وهو يُلوِّح بقبضته:

- ابتعد! ابتعد!

لكن «جيرالد» أسكته.

سألني «سيلي»:

- ماذا تريد؟

- سائل تلميع من أجل السيارة.

- قل لهذا القذر إنني لم أطلب تلميع سيارتي!

طلب «جيرالد» ذلك من «سيلي»، فارتبك الأخير، لكن حافظت على صمتي. أمرني «جيرالد» بتنظيف السيارة، ثم تلميعها، أنا متأكد من ذلك.

نهض «سيلي» قائلًا:

- أتريد المزيد؟

لكمني في وجهي بقوة، لكن العجيب أنني بقيت واقفًا، بوجه متبلد من الألم.

وحينها نهض «جيرالد»:

- أيها الغبي.

وركلني.

- قلت نظِّف سيارتي، ولم أقل لمِّعها.

جاءت سيارة شرطة، فدخل بعض البلطجية مسرعين إلى أكواخهم. كانت تتجه نحونا ببطء، لكن «جيرالد» حافظ على هدوئه، لتقف السيارة في النهاية على مقربة منَّا. وقفت مُوليًّا إياهم ظهري، هكذا تقتضي الحكمة إلى أن يرحلوا. نهض «جيرالد»، واتجه إلى أحد الضباط، وتبادلا محادثة سريعة قبل أن تغادر السيارة ثانيةً.

عاد «جيرالد» إليَّ:

- أيقا القذر، لم أفرغ من أمرك بعد.

حاولت البقاء ثابتًا، لكن رأسي أخذ يدور.

- نظِّف الإطارات بلُعابك.

سألني «سيلي»:

- لماذا تقف هنا؟ هيَّا تحرَّك.

وركلني في ضلوعي فسقطت، لكنني نهضت ثانيةً، حللت السُّترة من حول خصري، وبصقت عليها، ثم رُحتُ أُنظِّف الإطارات بدمي ولُعابي.

صاح «جيرالد»:

- لا تلمس عجلاتي الفاخرة، أيها اللعين.

قمت بمهمتي ببطء، وكنت أُسرع كلما اقترب «سيلي».

بعد فترة قال «سيلي»:

- هذا يكفي.

ثم جذبني من مؤخرة رأسي وألقى بي إلى جوار صناديق القمامة.

أمرني «جيرالد»:

- انتظر هناك.

بقيت واقفًا على الرغم من الدُّوَار. أجرى «جيرالد» مكالمة عبر تليفونه المحمول، وسرعان ما وصلت سيارة «فورد كورتينا» لونها بني عند «جيرالد» والآخرين، غادرها رجلان في ملابس رياضية زاهية لم أرَ مثلها من قبل. تصافحوا على

طريقة رجال العصابات، وهكذا هما. جذبني أحدهما من الـ«تيشيرت» وأدخلني السيارة، ثم اصطحباني إلى مستشفى «سومسرت».

رافقني أحدهما داخل المستشفى، كان يُدعى «ريتشارد». وعندما حان موعد الكشف، نظر إليَّ كأنه سيبصق على وجهي، إلا أنه لم يفعل. كانت الحكمة تقتضي التظاهر بمزيد من القوة. تبعني «ريتشارد» إلى الحجرة البيضاء التي يجلس فيها الطبيب، وأغلق الباب خلفه.

سأل الطبيب الأبيض:

- ماذا حدث؟

- ضبطوه يسرق أحد المتاجر، فقام المدير بمـ... أقصد أشبعه ضربًا، شهدنا الحادثة، فأحضرناه هنا، كنا هناك لحُسن حظِّه، كاد الرجل يقتله، حتى إنه همَّ بإخراج مسدسه.

قال الطبيب وهو يُدوِّن شيئًا:

- لا يعرف أحد حلًّا لمشكلة الصبية هؤلاء.

ردَّ «ريتشارد»:

- صحيح، لا يتسبَّبون إلا في المشاكل. يتحدث الناس عن الجريمة، هؤلاء الصبية هم الجريمة.

- يرفضون الذهاب إلى المدرسة، أو البقاء في البيت. يقضون حياتهم في شمِّ الغراء، وشرب الحشيش.

التزم «ريتشارد» الصمت.

قال الطبيب وهو يناولني رداءً أزرقَ خاصًّا بالمرضى:

- حسنًا، ارتدِ هذا.

خلعت ملابسي، ووقفت عاريًا، لم أهتم بارتداء الرداء الأزرق، أشار الطبيب إلى فراش أبيض، وطلب منِّي الجلوس عليه.

- يُفضَّل أن ترتدي ذلك حول خصرك، لسنا في الأدغال هنا، ستنظف إحدى الممرضات وجهك أولًا.

لففت الرداء الأزرق حول خصري كالمنشفة، فأغلق ستارة بيضاءَ عليَّ، وطلب من «ريتشارد» الانتظار بالخارج، وقال إن الأمر سيستغرق وقتًا.

ثم عاد الطبيب بصُحبة ممرضة هندية، وتجوَّل في الحجرة بمُعدَّاته الطبية خلال انشغالها بتنظيف وجهي بقطع من القطن.

سألت:

- ماذا حدث؟

بقيتُ صامتًا.

قالت وهي تنظف الجرح أسفل عيني اليُسرى:

- سيؤلمك هذا قليلًا.

قال الطبيب وهو يعود بصينية مُعدّات فضية:

- حسنًا، أنا جاهز.

ثم أردف وهو يحقن شيئًا بجانب عيني:

- كنت أميل إلى عدم استخدام مُسكِّن موضعي، عقابًا على ما أحدثه من مشاكل.

سألت الممرضة وهي تواصل تنظيفي:

- ماذا فعل؟

- ضبطوه يسرق، ففعل به المدير ذلك، لا تلوميه، غالبًا ما كان يحاول كسب قوته بشرف حين طرقت المشاكل بابه.

التزمت الممرضة الصمت.

أردف الطبيب وهو يخيط خدِّي:

- كم عمره؟ ثلاثة عشر، أربعة عشر على الأغلب، ويهرب من البيت، جميعهم يفعلون ذلك كما تعلمين، أطفال جامحة، ثم ها هو يُضبَط وهو يسرق قطعة شوكولاتة، أو شيئًا بائسًا من هذا القبيل. إنه يستحق ما حدث له.

نظرت الممرضة إلى عيني، ولم تنطق بكلمة.

قال بنفاد صبر:

- كُفَّ عن الحركة.

- أشعر بدُوَار.

فتحت فمي، فسال بعض الدم على سُترته البيضاء.

- أوشكت على الانتهاء. تماسك قليلًا، مشكلة هؤلاء الأطفال أنهم يريدون كل شيء الآن، ولا يطيقون الانتظار، أترين كيف يطاردونكِ في شوارع المدينة يتسوَّلون المال بعد أن كادوا يتسببون في اصطدامكِ بالسيارة التي أمامكِ؟ أنا لا أثق بهم، ولا أعطيهم مالًا على الإطلاق. لماذا أعطيهم؟ ليبتاعوا به المخدرات؟

كانت تستمع، لكنها لم تُومئ.

- حسنًا، انتهيت. أعطيه شيئًا للدُّوَار. سأذهب لأنظِّف نفسي.

أعطتني الممرضة سائلَ مضمضة لوقف نزيف اللثة، راقبتني وأنا أجاهد للوصول إلى الحوض لإفراغ فمي من السائل المالح.

- ماذا عن ساقك؟ أين موضع الألم؟

- كاحلي.

- لا تقلق، سنجري لك الأشعَّة.

عاد الطبيب بمعطف نظيف. ضغط بيده على أضلعي وعينه تراقب تعبيرات وجهي، تماسكت قدر استطاعتي. ثم بدأ يضغط على ظهري.

- في ظهرك كدمات سوداء وزرقاء، لكن بضعة أيام من الراحة ستصلح كل شيء، آمل أن تكون قد تعلَّمت الدرس.

- إنه يشتكي من كاحله يا دكتور.

- أعرف ذلك. خُذيه إلى دكتور «مايكل» في جراحة العظام. لقد انتهى دوري.

قالها، ودوَّن شيئًا في أحد الملفات، ثم ناوله للممرضة، وغادر. نظَّفت هي عيني الأخرى، وغطَّتها بضمادة.

سألت:

- أين ملابسك؟

قلت مشيرًا إلى أحد الأركان:

- هناك.

- لا تقف، فكاحلك مُتورِّم.

ناولتني الملابس والشبشب وأغلقت عليَّ الستارة. سمعتها تفتح الباب وتغلقه. ارتديت ملابسي ببطء، وأدخلت قدمي في الشبشب، ثم عرجت حتى الحوض لأنظر إلى نفسي في المرآة، لم أرَ في المرأة غير لون وردي، ولون أحمر، وقليل من الأزرق، كان وجهي مُتورِّمًا، بالكاد استطعت تمييز صورتي. ثم فتح الباب وعادت الممرضة بكرسي متحرك.

قلت ناظرًا نحوها بخجل، من جانب عيني السليمة:

- شكرًا.

دفعتني أسفل الممر، مررنا بـ»ريتشارد» ورفيقه، ثم انحرفنا يسارًا. التقط الدكتور «مايكل» في جراحة العظام صورتَي أشعَّة، وفحصهما أمام ضوء يصدر من الحائط. أخبرني أن لديَّ كسرًا في الكاحل، لكنه ليس كسرًا خطيرًا.

دوَّن شيئًا في الملف، ثم دفعتني الممرضة إلى حجرة أخرى، حيث وضعوا الجبس حول كاحلي وقدمي. غطَّى الجبس نصف ساقي، وسمحت لي الممرضة بتجربة بعض العُكَّازات لانتقاء ما يناسبني. وفي النهاية أعطتني مُسكّنًا للألم، ثم دفعتني حتى «ريتشارد» ورفيقه.

- اعتنِ بنفسك.

وأردفت وأنا أعرج مُغادرًا:

- لا تنسَ العودة خلال ثمانية أيام لإزالة الغُرَز.

فور دخولي السيارة، قال «ريتشارد»:

- حطَّموا ضلوعك، أليس كذلك؟ أنت غبي، أرجو أن تتعلَّم الدرس جيدًا.

قالها وجذب المُسكِّن الخاص بي.

- يمكنني المغادرة الآن.

قلتها فور عبورنا بوَّابة المستشفى، وأردفت:

- أسكن بالقُرب من هنا.

- إلى أين تنوي الذهاب؟ لم يفرغ «جيرالد» من أمرك بعد.

توقف قلبي. عبرنا «سي بوينت»، و»جرين بوينت» باتجاه المدينة، مررنا بمحطة القطار، ثم «وود ستوك»، لنتوقف أخيرًا أمام بيت في «سالت ريفر».

حاولت التقاط العُكَّاز، لكن «ريتشارد» نهرني:

- اتركه هنا، لن تحتاج إليه.

عرجت باتجاه البوَّابة، عبرها «ريتشارد» أولًا، ثم رفيقه، وسرت خلفهما. ألقت علينا التحية عند البوَّابة امرأة ترتدي بنطالًا مُثيرًا، خاطبت «ريتشارد» بالأفريقانية. اصطحباني عبر المبنى، ومرَّت بنا فتيات أُخريات. رأيت رجلًا هنديًّا يغادر إحدى الحجرات الكثيرة وهو يربط حزامه بعُجالة. لم ينظر إلينا عند مرورنا به. كانت في الخارج حجرة صغيرة منطوية في ركن قرب حبل الغسيل، فتح «ريتشارد» الباب، وأمرني بالدخول، وما إن خطوت بالداخل حتى أغلق الباب خلفي وأوصده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

لم تُفتح الحجرة طيلة أيام ثلاثة، كنت أتغوَّط في وعاء تركوه لي، وأنام على إسفنجة. جلست أنصت إلى جروحي وكدماتي لمدة ثلاث ليالٍ، شعرت فيها بجسدي يشفى. تُغطِّي أحد الجدران مرآة، وفي الجدار المقابل زرٌّ للنور أعبث به مراقبًا المرآة عندما أمل ليلًا. عندما يُطفأ النور يبدو كأن المرآة تَبتلعه، وعلى الرغم من اعتراض معدتي الصارخ، كنت أزداد قوة، عندما يبدأ الشعور بالوهن يتسلل إلى نفسي أشرع في الغناء. أنشدتُ أغانيَ مرتجلة لا علاقة لها بالكلمات، مجرد أصوات غير منطقية تفرض نفسها على عقلي، أُدندن أحيانًا نغمة واحدة لأرى كم من الوقت يمكنني الإمساك بها، أواصل ذلك مدة طويلة، ها أنا ذا أزداد قوة، وأشعر بعضلات معدتي تتخذ هيئة التلال الصلبة، وتستمر الموسيقى الآمرة داخل رأسي: دمِّر، دمِّر.

استلقيتُ على ظهري، وحدَّقت في الضوء إلى أن رأيت أنصاف دوائر من النار، ثم أطفأ النور، ودمَّرت الحجرة بأنصاف الدوائر النارية تلك. احتدم بركان في رأسي وأنا أفعل ذلك، وعندما خبت النار فتحت النور ثانيةً، وحدَّقتُ في الضوء، واصلت فعل ذلك أغلب الليل، ونمت نهارًا. ها أنا أزداد قوة. تغذَّيت على الضوء، ونسيت بالتدريج جوعي، هذا ما علَّمنيه الكبار، أن أكون قويًّا، فأمتصُّ الضوء بعيني وأُدمِّرهم بالنيران.

مِلتُ في طفولتي إلى اللهو بأعواد الثقاب، اعتدت إشعالها ومراقبة النار وهي تحرق العود الصغير حتى يسود لونه. كان ذلك مدهشًا. كذلك اعتدت سرقة أعواد الثقاب من مخبأ أُمِّي السري، واللعب خلف الكوخ، ولمَّا كنت أشعر بالذنب دومًا، كنت أستخدم أقل عدد من الأعواد؛ لأن أُمِّي تحتاج إليها لإنارة الشموع، وفي إحدى المرَّات، وأنا لم أزل صغيرًا أشارك والديَّ فراشهما، أحرقته بالخطأ، كنت ألهو بالثقاب، وبطريقة ما أمسكت النار بالفراش، حاولت إطفاءها، أذكر أنني بصقت عليها، شئت لكن النار شائت أمرًا آخر حينها، لم تستمع إليَّ، لذا ركضت خارج الكوخ، وناديت والديَّ في أثناء حديثهما مع أحد الجيران، أذكر أن والديَّ لم يضرباني على تلك الفعلة قط، فتركهما الثقاب في متناول يدي أرعبهما بشدة.

بكت أُمِّي يومئذٍ، جلست خارج الكوخ وبكت، بينما كان أبي يحاول إطفاء النار، أظنها بكت بسبب سوء أخلاقي، لا أنسى ذلك اليوم مطلقًا، أذكر اضطرارنا إلى افتراش الأرض بعد حرقي الفراش. لم يضرباني، ولو مرة، كان ذلك غريبًا؛ إذ اعتاد أبي ضربي عند قيامي بما لا يعجبه، وكان ذلك يحدث كثيرًا، لكنه لم يضربني قط بسبب الحريق.

***

فتح «ريتشارد» الباب، ووجدني نائمًا.

صاح وهو يضرب الباب:

- استيقظ أيها الحقير!

كان يقف إلى جوار الباب كظل يحجب الضوء، تقدم نحوي كأنه يقرأ أفكاري. ركل الجبيرة، فنهضتُ في الحال.

قال وهو يدفعني:

- تظن نفسك قويًّا، أليس كذلك؟

سقطت على الإسفنجة، فلم أنهض.

- قم. لا وقت للعب أيها القذر.

ارتديت الـ«تيشيرت»، وعقدت سُترتي الممزقة حول خصري.

- خذ برازك، وأفرغه في الخارج. إنه عفن مثلك.

خرجت، وأفرغت الوعاء في المرحاض.

- هل شطفت المرحاض أيها القذر؟

- نعم، يا «ريتشارد».

- وذهب البراز كله؟

- نعم، كله يا «ريتشارد».

- يا لك من مخلوق نتن! اذهب إلى الداخل.

ودفعني ثانيةً، فكدت أقع، السير بالجبيرة صعب، أعطتني إحدى الفتيات عند باب المطبخ صابونة «لايفبوي»، وخرقة صغيرة، كما أعطتني طستا بلاستيكيًّا كبيرًا، وأمرتني بالذهاب إلى الخارج.

- اغتسل.

أمرني «ريتشارد»، مشيرًا تجاه صنبور بالخارج.

ملأت الطست البرتقالي بالماء، ووضعته، ثم خلعت ملابسي، حين نظرت إلى انعكاسي على الماء لاحظت سقوط اللاصقة الطبية عن عيني، وأن عيني المصابة بدأت تتفتَّح ببطء، غسلت وجهي بالماء أولًا، شعرت ساعتها بالتورُّم يتحسَّن، وعند الباب وقفت فتاة تراقبني وأنا أقف بقدمي السليمة في الماء، والأخرى خارجه. في البداية نقعت الخرقة، ثم استخدمت الصابون، وعندما بدأت الفقاقيع في الظهور مرَّرتُ الخرقة على ساقي المصابة أولًا حتى الركبة.

- عليك تنظيف كل شيء، هل تسمع؟ أريدك نظيفًا.

- حسنًا يا «ريتشارد».

أضافت الفتاة:

- حتى خصيتاك.

ضحكت بغباء، وظلت تراقبني حتى انتهيت.

غربت الشمس، واشتعل السحاب بلون برتقالي ناري. اغتسلت بسرعة، وتنشَّفتُ بالخرقة الصغيرة. وفي النهاية أفرغت الماء في مصرف المجاري.

قال «ريتشارد»:

- جيد، هيَّا بنا.

سار خلفي عبر البيت، رأيت الفتيات يشاهدن التليفزيون في إحدى الحجرات، اختلست نظرة، وواصلت السير؛ لأنه ورائي. ثم جلست في المقعد الخلفي، وانطلقت

السيارة نحو المدينة.

تركنا السيارة في منطقة للمُلوَّنين واتجهنا إلى مجمع سكني، استخدمنا السُّلَّم لمَّا تبيَّن أن المصعد مُعطَّل، تركني «ريتشارد» أسير في المقدمة، استندت إلى الدرابزين خلال السير. كان مبنى مزعجًا، يركض الأطفال في كل مكان، والإنارة خافتة في كل الطوابق، تملؤه رائحة البول والبراز، والنار تلتهم صفيحة قمامة في أحد الأروقة. مررنا بمجموعة من المُشرَّدين وحوائط مُشوَّهة.

عندما وصلنا إلى الطابق العلوي، قرأ «ريتشارد» المكتوب على الحائط بصوت مرتفع:

- «نيلسون مانديلا» القذر.

يقول إنها بديل عن رنَّة الجرس، شيء يقوله كلما صعد، بقيت في الخلف حتى فتح الباب.

- لن تدخل.

قالها وسمح لرفيقه بالعبور، ثم فتح بابًا آخرَ بجوار الشقة، صعدت سُلَّمًا صغيرًا في الظلام حتى وجدت بابًا آخرَ، أشعل «ريتشارد» ولَّاعته وفتحه، دفعني إلى السطح، وأوصده خلفي ثانيةً.

كنت أطلُّ على المدينة بأكلمها من هنا، يمكنني رؤية المكتبة، ومحطة القطار، وحتى «كيب صن» بأنوارها الذهبية. جلست ملاصقًا للحائط الدافئ بسُترتي الممزقة، بينما تئنُّ معدتي، عليَّ التزام الصمت، ها أنا أزداد قوة. إنني أزداد قوة، عليَّ تكرار ذلك لنفسي.

حين أظلمت السماء وظهر القمر، فتح «ريتشارد» الباب، وناولني نصف لتر حليب، ورغيف خبز أبيضَ في جريدة، أكلت نصف الرغيف، وشربت نصف الحليب، واحتفظت بالبقية للصباح. بعد نحو ساعة، بدأت معدتي في التذمُّر كأن هناك وجبة تُطبخ وتُسلق في الداخل. بعد فترة، أخذت قطعة من ورق الصحيفة، وجريت إلى أحد أركان السطح. أنزلت بنطالي فتفجَّر الريح من مؤخرتي، وتطاير البراز كالحساء، واصلت فعل ذلك معظم المساء، ثم قررت تناول بقية الخبز، دون المساس باللبن، ربما يحالفني الحظ ويسمح لي بالمغادرة غدًا، لا أتوقع ذلك، لكنني أقولها لأنها ما كان ليقوله الكبار في مكاني. ربما يحالفني الحظ غدًا، كررتها، وأطلقت الريح.

نمت جيدًا في الخارج، حيث الهواء الدافئ المُحمَّل برائحة البحر.

***

في الصباح، قبل الشروق، فتح «ريتشارد» الباب، وترك طبق به دجاجة كاملة. التهمتها كلها، ثم شعرت بالعطش. نظرت إلى الحليب لكن لم أشربه. رُحتُ أستكشف السطح، وأشاهد الناس في الأسفل، رأيتهم يركبون سياراتهم، ويغادرون منازلهم، رأيت أطفالًا يركضون في الطريق يلعبون الكرة، رأيت حمامًا قبيحًا سمينًا، يرفرف فوقي بغير توقف، ويحط على السطح. كان البعض منه لديه ساق واحدة فقط. تحاول ذكور الحمام دائمًا مضاجعة الإناث. تستقوي عليها وتركبها من الخلف، ليس في مشاهدة ذكور الحمام تلك أي متعة، فهي سمينة، ولها حلقوم ثقيل

يتدلى كقطعة لحم زائدة. كلما حطت على السطح طردتها، لكن الأمر لا يكون مُسليًا حين أُطاردها فُرادى. عليك أن تنتظر، عليك انتظار تجمع عشرين منها مثلًا. حينها أنهض فجأة، وأركض نحوها. فتطير مبتعدة وهي تصدر صوتًا لطيفًا.

شعرت بظمأ شديد، فتوقفت عن الجري هنا وهناك. لم يكن في السطح بُقعة ظل واحدة، لذا خلعت الـ»تيشيرت»، وجلست أتصبَّب عرقًا تحت الشمس. بدأ الحمام يتجمَّع ويراقبني. نظَّف أجنحته وتغوَّط على السطح. أصدر أصواتًا مزعجة، أصواتًا لا يصدرها إلا الحمام، وطاردت ذكوره الإناث. الذكور مستعدة لفعل أي شيء من أجل ممارسة جنس سريع.

حين أوشكت على النوم حدث أمر غريب، حلَّقت نوارس في الجو. أحدثت كثيرًا من الضوضاء، وأفزعت الحمام. نهضت وشاهدت الحمام يطير مبتعدًا في تخبُّط. يصطدم بعضه ببعض. ضحكت عندما هاجم نورس ذكر حمام. لا يستحق الأمر وصفه بالمعركة. ففي كل مرة يمزق النورس بمنقاره القوي بعضًا من ريش ذكر الحمام قبل أن يطير الأخير مبتعدًا. لا يتطلب الأمر سوى قليل من النوارس، تسعة منها مثلًا، لإخافة نحو ثلاثين حمامة غبية. إنها نوارس جميلة. لها ريش أبيض تعتني به. تستحيل رؤية نورس قذر الأجنحة كحال بعض الحمام. لدى النورس كبرياء، يغتسل دومًا في البحر بالماء البارد، مثلما أفعل. شاهدت النوارس كثيرًا عندما جئت إلى «كيب تاون». ليست غبية مثل الحمام. الحمام غبي لأنه يسمح للآخرين باستغلاله. متى رأى شخص نورسًا يُستخدم للمراسلة؟ لم يحدث قط.

تتجوَّل النوارس على السطح الساخن بشكل أخرق، تصيح طوال الوقت بغضب. تشتد عليها الشمس بمرور الوقت فتطير إلى مكان آخر، لكنها تعود سريعًا لا لشيء إلا لإزعاج الحمام البادئ في التجمُّع. أنسى عطشي حين أنظر إليها، وأُفكِّر في السباحة في البحر. أُفكِّر في موج أبيض يتحطم على الصخور وفقاقيع تطير في الهواء المالح. أُفكِّر في ماء البحر وما يفعله ببشرتك الجافة إذا لم تسرع بشطف جسدك. أُفكِّر في «بافانا» فيتملَّكني الحزن. لماذا هو في الخارج وأنا في الأعلى هنا؟ لماذا أقع في المشاكل من دونه على الرغم من تعاطيه المخدرات بالأطنان؟ أين رجال الشرطة؟ لماذا لاتجدهم عندما تحتاج إليهم؟ لماذا يتحدثون مع أشخاص كـ»جيرالد»؟ لماذا لا يهتمون إلا بمالك الـ»بي إم دبليو» الذي تُسرق منه في وضح النهار؟ لماذا يرعبهم الليل؟ لماذا لا يظهرون ليلًا حين تكون في أقصى حاجتك إليهم؟ هل ينامون هانئين؟ أم تخيفهم الأشياء السيئة التي تظهر في الليل هم أيضًا؟

عادت النوارس ثانيةً، وأخافت الحمام. بمرور الوقت أشفقت على الحمام. ليس في قوة النوارس. فالبعض منهم لديه ساق واحدة، وطفح جلدي يظهر على هيئة بُقع من اللحم الوردي مكان الريش الذي كان ينمو سابقًا، لكنه غبي، لماذا لا يعيش مثل النوارس؟!

أتى الليل ولم يُفتح لي. جفَّ فمي من العطش، وحين نظرت إلى الحليب وجدته قد تبخَّر. كنت أجلس فوق الحافة من دون أي طعام، أو شيء أشربه، كانت ساقي مُتدلية بصورة خطيرة في الهواء حين فُتح الباب.

سأل «ريتشارد» من مكانه:

- أيها التعيس، ما الذي تفعله هناك؟

تركت الحافة، وسرت باتجاهه.

- ألا ترغب في شرب شيء؟

- أجل يا «ريتشارد».

- إذن، تعالَ.

ذهبنا إلى شقته. في إحدى الغرفِ يجلس ثلاثة آخرون بلا كراسي ومنضدة واحدة. يجلسون على أكياس ممتلئة بالفلّين، ويشاهدون تليفزيونا كبيرًا. ترقد في المنتصف صينية فضية عليها قطع الحشيش وسيجارة وثلاثة من أعناق الزجاجات تستخدم لتدخين الحشيش. ناولني «ريتشارد» طبقًا به طعام، ثم اتجه إلى الصينية.

- طبخت أختي ذلك.

لم تكن في عينيه العداوة المعتادة.

- شكرًا يا «ريتشارد».

- لا تشكرني، فقط كُل.

جلست قُرب التليفزيون دون شغل حيِّز من مجال رؤية أحدهم. كان التليفزيون يُذيع مجموعة أغانٍ. شرع الآخرون في التدخين بواسطة أعناق الزجاجات. أكلت سريعًا، ووضعت الطبق في الحوض، والتقطت منه إبريقًا فارغًا ملأته بالماء، شربت قدر استطاعتي بغير إسراف خوف الإعياء.

- هل انتهيت من الطعام أيها التعيس؟

- نعم يا «ريتشارد».

سألني وهو يبتعد:

- هل كان لذيذًا؟

أومأتُ برأسي.

- تعالَ هنا.

دعاني إلى حجرته، فتبعته.

- أنام هنا، تأمَّل حجرتي.

كانت حجرة مُتخمة وفوضوية.

- حسنًا يا «ريتشارد».

- أغلق الباب.

أغلقت الباب، ففتح سحاب بنطاله، وأخرج عضوه.

- تعالَ هنا، اقترب.

شعرت بالتردد.

- أيها التعيس، لا تستفزني. منحتك للتوِّ وجبة لذيذة، صحيح؟

أجبته مقتربًا:

- صحيح يا «ريتشارد».

- اجلس على الفراش.

جلست على حافة الفراش، وانتصب عضوه أمام وجهي.

- تأمَّل ما أصاب وجهك، ظننت نفسك مُلوَّنًا، أليس كذلك؟ هيًّا تناوله.

قالها، ودفعه داخل فمي.

- افتح جيدًا أيها القذر. التهمه كله.

أطعت أوامره. وقف مكانه، وراح يحرك وسطه حتى أصاب فكِّي الإنهاك. أخرجت عضوه من فمي، وبدأت أدعكه.

- أيها اللعين! تناوله. أستطيع مُداعبة نفسي دون مساعدتك.

وضعته ثانيةً في فمي.

فُتح الباب، وقال أحدهم ضاحكًا:

- ماذا يحدث هنا؟ أريد الحصول على نصيبي من المتعة أيضًا.

ابتسم «ريتشارد» وهو يرى الآخر يفكُّ بنطاله.

- حان دوري.

قالها وضغط بعضوه متوسط الانتصاب على خدِّي.

- كفاك يا «ريتشارد».

أخرج «ريتشارد» عضوه من فمي، لكنه لم يشبع، بدأ يداعب نفسه وأنا مشغول بزميله. سرعان ما اشترك الجميع، وتناوبوا على فمي. راحوا يشجعونني، يحثُّني كل منهم على تناول عضوه. دوت صرخة نورس عنيفة داخل رأسي، نورس ينساب فوق البحر، حيث الموج يعلو ويهبط. ها هم يمنحونني قوتهم. بدأت أعرق، تيبَّس فكِّي بعد فترة، لكن لم أتوقف، جعلوني أُداعبهم حتى فرغ مخزونهم جميعًا، لكنه أُفرغ - على الأقل - على الـ«تيشيرت»، لا في فمي. ناموا بعدها في حجرات مختلفة، وذهبت إلى دورة المياه لغسل الـ«تيشيرت».

سمعت صوت «ريتشارد»:

- أين أنت أيها التعيس؟

خرجت بالـ«تيشيرت» المُبتل، وتبادلنا النظرات قليلًا، ثم قال:

- ستنام في الخارج ثانيةً، الجو حار هنا، وأنت زنجي نتن.

عبرت الباب إلى السطح، وأوصده خلفي، ثم انتظرت قُرب الباب إلى أن خفت صوت خطوة. عندما نظرت حولي رأيت نوارس على حافة السطح تقف كتماثيل. هبط آخر على السطح الدافئ باسطًا جناحيه، كان ذكرًا، يمكنك معرفة ذلك من مشيته. وقفت النوارس الأخرى منتظرة، بينما يخطو هو متفاخرًا إلى أن أصبح على بعد خطوة منِّي، ثم تبرَّز وطار عائدًا إلى رفاقه. توجهت دون تفكير إلى تلك البقعة ومرَّغت إصبعي فيها، ورسمت به على الباب صليبًا. بدأت النوارس في الصراخ والتصفيق بأجنحتها. عدت إلى البقعة وتبوَّلت عليها، ثم جلست مسندًا ظهري إلى الحائط. تقافزت جميعًا إلى بركة البول باندفاع جنوني، وغمست فيها أرجلها، ثم

حلقت بعيدًا، عدا النورس الذكر، وقف عند حافة السطح كالحارس. ابتسمت، وأغلقت عيني. وقبل أن أفارق الوعي شعرت بذلك، شعرت بأنني أزداد قوة.

***

أيقظني «ريتشارد» بعد الشروق، وأمرني بركوب السيارة معه ورفاقه. جلسنا صامتين إلى أن وصلنا إلى الجسر، وهناك ناولني «ريتشارد» العُكَّاز وأنا أغادر السيارة. كان «جيرالد» أول مَن رأيته أسفل الجسر. ما يزال البقية نائمين، عدا الحمام الواقف على الجسر يهدل ويراقب بأعيُن من خرز. انتظرت خارج كوخ «جيرالد» وهو يتحدث مع «ريتشارد» ورفاقه بالأفريقانية. بعد رحيلهم ناداني فأجبته، كانت ناموسية الباب بيننا.

- ما اسمك يا أزرق العينين.

- «آزوري».

- أي اسم هذا، يا أزرق العينين؟

- هكذا دعتني أُمِّي.

- إذن، كانت أُمُّك حمقاء؛ كيف يمكن للناس.. كيف يمكنني تذكر ذلك الاسم؟

لم أجب بكلمة، فقط استندت إلى الناموسية أستمد أي دعم ممكن وأنا أنظر في الأرض.

- اسمع، يتذكر الجميع اسمي بيُسر شديد، يتذكره كل مَن يعرفني.

ثم أكمل مبتسمًا:

- وأنت الآن تعرفني، صحيح يا أزرق العينين؟

- صحيح يا «جيرالد».

- جيد، إذًا لا تتذاكى ثانيةً. أظن كل منا يفهم الآخر جيدًا الآن، صحيح يا أزرق العينين؟

- صحيح يا «جيرالد».

- لكن علينا حل مشكلة الاسم... «أزرق». هممم، «أزرق»، «أزرق»، «أزرق». هل يعجبك؟

- ماذا؟

- اسمك الجديد؟

- نعم، يعجبني يا «جيرالد».

- ما اسمك الجديد؟

ترددت لحظة، ثم أجبت:

- «أزرق».

- أحسنت، ما تزال بك بقية من عقل.

ذهب إلى الداخل وأخذ يبحث في الغنائم، ثم أعطاني حذائي القديم و«تيشيرت» مطبوع على صدره صورة أسد.

- أرأيت، لستَ بذلك السوء.

- شكرًا يا «جيرالد».

- دعك من ذلك الآن، فقط خذه. إن أردت البقاء حيًّا فعليك التوقف عن الشكر... «شكرًا»؟ هل أنت غبي؟ أم ماذا؟ انظر إلى وجهك وقدمك، ليس هنالك ما تشكرني عليه. على كل حال، توقف عن ذلك وإلا أوسعتك ضربًا. هل تريد أن تُضرب ثانيةً؟

- لا يا «جيرالد».

- لا يا «جيرالد»، هذا أفضل.

أومأت برأسي. إنها دروس جديدة؛ الدرس الأول: لا شُكرَ؛ الدرس الآخر: لا يا «جيرالد»، لا يا «جيرالد»! لا يا «جيرالد»!

- اخلع هذا الـ»تيشيرت» اللعين الآن.

قالها فجأة.

- وتلك السُّترة يا «أزرق»، لا يمكنك ارتداؤها، لقد بليت.

ناولته السُّترة والـ»تيشيرت» القديم المُبقَّع بالدم، كان الحمام يهدل وطار أحدها بعيدًا، أعطاني فردة حذاء واحدة.

- سأحتفظ لك بالأخرى.

- لكن يا «جيرالد»...

- ولا تستأذن حتى، هذا هو بيتك الجديد، أنت ملكي الآن، مَن دفع فاتورة المستشفى؟ أنت تعيش بفضلي، مَن أطعمك في الأيام الأخيرة؟ أخبرني مَن؟ أودُّ حقًّا أن أعرف.

أجبتُ ناظرًا إلى الأرض:

- أنت يا «جيرالد».

- بالضبط، أنا. والآن أنت ملكي. هل تفهم؟

أومأت برأسي، كان قول نعم صعبًا هذه المرة.

ذهب إلى الحمَّام، ومكث قليلًا، ثم عاد قائلًا:

- لكل شخص هنا عمل يقوم به. لذا اذهب وقم بأيٍّ مما كنت تفعله، لكن عليك العودة في الخامسة، فلديَّ مهمة من أجلك. ويا «أزرق»...

نظر في عيني مباشرة، وأكمل:

- لا تخيب ظني.

أومأت برأسي وغادرت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

ذهبتُ إلى محيط «صب واي». كان الوقت مبكرًا، يطوف الشوارع قلَّة من الناس، صادفت «فينسينت» وهو يعمل في مكانه المعتاد.

بادرني بالسؤال:

- أين كنت؟ سمعت حكايات عمَّا يجري لك.

- كنت في أماكن غريبة. ماذا سمعت؟

- سمعت أن «جيرالد» فتك بك.

- منذ متى يفتك «جيرالد» بأحد؟ تولَّى «سيلي» أمري.

- آه، إذًا أنت محظوظ. لو أنه فتك بك بنفسه لربما قتلك. تفهمني؟

- لا.

- لا يقيم «جيرالد» أسفل الجسر متحاشيًا لفت الأنظار دونما سبب.

- وما السبب؟

- لا، أنت تفقد السيطرة على لسانك أحيانًا.

- اسمع، أعرف أنه يتاجر في المخدرات وما شابه.

- سُحقًا للمخدرات. يُشاع أنه قتل بعض الأشخاص، اسمع، يقولون إنه قتل عائلة، قتل زوجين وطفليهما.

- لكنه طليق!

- اصبر، لم يقتل «جيرالد» عائلة عادية، أتذكر مقتل رجل العصابات «راشيد ستاجي»؟

- أجل.

- حسنًا، تولَّى «جيرالد» أمر أحد الأقوياء ذوي الصلة بـ»ستاجي»، قُضي عليه، بضربة واحدة قضى على العائلة بأكملها، إياك أن تعبث مع «جيرالد». سيقتلك.

- ماذا عن الشرطة؟ لماذا لا تفعل شيئًا؟

- لا تكن أحمقَ، ماذا يمكنهم فعله؟ ألم يقدم إليهم جميلًا بتخليصهم من تاجر مخدرات خطير؟

- صحيح، لكن..

- لكن ماذا؟ كيف يمكنك قول ذلك؟ في أي كوكب تحيا؟ إنها جنوب إفريقيا يا أخي. الشرطة متورطة أيضًا في ذلك. إنه زمن لعين. هل تدرك الآن خطورة إزعاجك لـ»جيرالد»؟ سيقضي عليك، لن يستغرق الأمر ثانيةً، ولن يهتم أحد. اللعنة، أنت طفل شوارع، والأسوأ أنك لا تعرف سواي في «كيب تاون».

- إذًا الشرطة أيضًا متورطة.

- بالطبع. إنهم بشر مثلنا يريدون تناول طعام جيد، الشوارع قاسية، يقضي هؤلاء الأغبياء أوقاتًا عصيبة بسببنا، ويذهب نصفهم إلى العمل منتشين من أثر المخدرات.

- إذن، فلذلك رأيتهم يتحدثون مع «جيرالد»؟

- عليهم فعل ذلك، فبإمكانه فضحهم جميعًا. لذا يعطونه مساحة من الحرية أسفل الجسر. تلك قلعته. يملك ذلك الفتى مالًا كثيرًا، لكن لا يستطيع إنفاقه، بالطبع تدرك كم سيزعج هذا أي شخص، أقصد، تخيل أنك تملك كثيرًا من النقود.. بمعنى.. لا أعرف مقدار ثروة «جيرالد»، ربما ملايين، لكنه لا يستطيع إنفاقها بسبب المشاكل التي وقع فيها، هذا شيء مدمر. اللعنة، «جيرالد» حيوان مفترس، كن حذرًا حين تقترب منه.

استوعبت النصيحة، وتنهَّدت.

- لا تقلق، ستكون بخير. فقط عامله بحذر.

- لكن كيف يعقل أن تكون هنا وأكون هناك؟

- لأن كل ساحة لا تتسع إلا لمفترس واحد، كما في فيلم «حديقة الديناصورات».

- لم أشاهده.

- لم تشاهد «حديقة الديناصورات» قط! ماذا كنت تفعل في «سي بوينت»؟

- كنت مختبئًا. على كل حال، أخبرني عن ذلك الفيلم؟

- نعم، في ذلك الفيلم ديناصور. تعرفها الديناصورات، أليس كذلك؟

سأل ضاحكًا، أومأت برأسي، وقلت:

- أعرفها، وحوش بحجم «كيب صن» يلتهم بعضها بعضًا.

- أجل، صحيح. كان أحدها يُدعى «تي ركس».

اقتربت سيارة. أشار السائق لي بالركوب، ثم قرر المغادرة حين رأى «فينسينت» الذي صاح فيه:

- جبان! على كل حال، كان «تي ركس» ملك الديناصورات. كان مثل الأسد. قتلها جميعًا. حاولوا في الفيلم السيطرة عليه، لكنهم فشلوا. وضعوه في قفص، لكنه هرب. في النهاية التهم «تي ركس» الأشخاص الذين حبسوه. في أحد المشاهد الدموية يمكنك رؤيته وهو يقسم الرجل نصفين بقضمة واحدة. إنه شيء هزلي!

- لماذا تحكي ذلك؟

- يا غبي. تعلم الإنصات إن أردت العيش.

- صحيح، أنا متأسف. أكمل.

قال في نفس واحد:

- حسنًا، الآن «تي ركس» هو «جيرالد». عليك استيعاب ذلك.

- ماذا؟

- فقط استمع إليَّ. استمع إليَّ.. «تي ركس» هو «جيرالد».. هل فهمت؟

سألني وهو ينظر في عيني.

- حسنًا.

- ليس حسنًا على الإطلاق. إنه شخص خطير، سيدمرك. الناس تتحدث عن الشيطان، لكن الشيطان ليس شيئًا. لقد رأيته، إنه لا شيء مقارنة بـ»تي ركس». تسألني لماذا أنا هنا وأنت هناك؟ لأن «تي ركس» وضعني هنا. أنصت إلى قولي. هذا الرجل خطير، يا غبي، خطير. يعرف كل شيء. إيَّاك أن تعبث معه.

- هل تخدعني؟ تتحدث عنه كما لو كان «ألين».

- اللعنة، تقول «ألين»! يستطيع «جيرالد» تدميره بصيحة واحدة.

- ماذا تقول؟ ماذا عن كل ما قلته عن «ألين» من قبل؟

- فقط استمع.. «جيرالد» هو «تي ركس». لا يهمني مدى تقبُّلك الأمر، فقط عليك استيعابه، حسنًا؟ اسمع، هل كذبت عليك من قبل؟

- لا.

- فلماذا سأقول شيئًا كهذا الآن إن لم يكن حقيقيًّا؟ هل تفهمني؟

- لكنه أخذ الـ»تيشيرت».. المُلطَّخ بالدماء.

- بالطبع سيأخذه. اسمع، نحن لن ننجز أي عمل اليوم. هيَّا بنا.

سرنا باتجاه محطة القطار.

- أرى أنك تملك الآن خط سكة حديدية خاصًّا بك.

ابتسم وهو يتحسس الغُرَز المخطوطة أسفل عيني اليُسرى.

- مجرد خمس غُرَز، ليست بذلك السوء.

تناول عُكَّازي، وبدأ يتقافز به.

- أرى أنك استعدت حذاءك القديم.

- نعم، عليَّ الآن التوجه إلى «جيرالد» أولًا.

- هكذا هي «كيب تاون»، لا تنسَ ذلك. حسنًا؟

أومأت برأسي.

- لديَّ أحذية جديدة لك، أحذية جيدة.

أجبته مشيرًا إلى حذائي:

- أيًّا كان، سأنتظر حتى يتمزَّق هذا أولًا.

- تبدو مختلفًا.

- لقد حطَّموا جسدي.

- لا أقصد ذلك، هناك شيء غريب حيالك.

- ماذا؟

- لا أعرف. في عينيك شيء غريب.

- عمَّ تتحدث؟ إن ما تقوله هراء. هل تمارس ألاعيب «ألين» معي؟

عبرنا الشارع والمحطة، كانت الناس تسير في كل الاتجاهات.

- انتظر. عرفت الآن.

قالها كمَن ربح جائزة للتوِّ.

- تبدو أكبر سنًّا، ذلك هو الأمر، أنت تبدو أكبر..

- أشعر بذلك أيضًا.

قلتها موافقًا.

- أشعر أني بلغت الثالثة عشرة.

- متى يحين يوم ميلادك؟

- قريبًا.

- أتعني أنك لا تذكره بالتحديد؟

أومأت برأسي.

- اللعنة، إذًا فاليوم هو عيد ميلادك. سأحضر لك بعض الحشيش. أعرف طريقة للحصول على نوع جيد من «مالاوي»، حتى إنهم يعبئونه في إبريق، يأتي طازجًا من «مالاوي».

- جيد.

اشترينا الطعام من موقف سيارات الأجرة وجلسنا نتناوله خارج القلعة القديمة.

- ماذا كنت تقول عن «تي ركس»؟

- ماذا كنت أقول؟ دعني أتذكَّر. نعم، أخبرتني أنه أخذ الـ«تيشيرت» المُلطَّخ بالدم.

- صحيح.

- ولديه على الأغلب فردة حذائك الأخرى.

- نعم يا أخي. أريد التحدث معك عن ذلك، رأيت أحذية أخرى في حجرته، إنه يُكوِّمها على رفٍّ.

- «تي ركس» جائع، إنه جائع.. «تي ركس» جائع دائمًا.

- ماذا تعني؟ ما كل ذلك الهراء حول «تي ركس»؟

- «تي ركس» جائع، هذا كل ما أعنيه.

- لكن مَن يكون «تي ركس»؟

- الأمر ليس صعبًا يا «آزوري»، الأمر ليس صعبًا يا رجل. اللعنة، أتظن أن الحياة ١ + ١ = ٢. إذًا اسمعها منِّي، الحياة ليست كذلك. لطالما مارس الناس تلك القذارة منذ زمن، اسمح لي بقول شيء، إن كان لديك ما يكفي من الذكاء والعلاقات بالأشخاص المناسبين فستستطيع بقليل من المال فعل أي شيء. هذا ما فعله «جيرالد»، إنه «تي ركس»، إنه سلاح دمار شامل. والشرطة تعرف هذا.

- الشرطة تعرف؟ كيف ذلك؟

- لأنهم أيضًا غارقون في المستنقع نفسه. لا يسع رجل طبيعي احتمال جميع ما يتعرض له هؤلاء الأشخاص، لذا فهم يستغلون كل ما يُتاح لهم.

- حتى «تي ركس»؟

- لا، ليس «تي ركس».. «تي ركس» مفترس، يعمل لحسابه؛ لذا يعيش «جيرالد» أسفل الجسر. وعليهم التحكم في «تي ركس»، وإلا..

- دمار شامل.

- بالضبط، الآن فهمت.

أومأت برأسي، وتنهَّدت.

- وماذا يريد «تي ركس» منِّي؟

- لا تذكر اسم «تي ركس» وأنت تتحدث عن «جيرالد» أبدًا.

- لماذا؟

- لماذا؟ أحيانًا تطرح أسئلة غبية، عليك طرح أسئلة ذات مغزى، أترى ذاك الطائر بالأعلى؟

قال مشيرًا إلى حمامة تنقر شيئًا على مقربة.

لم أجب، كنت أشعر بحلقي يتقلَّص خوفًا. أردف قائلًا:

- أجل، يمكنه سماعنا، لذا لا تعبث مع «جيرالد»، سيدمرك.

- فلنحضر الحشيش.

قلتها بعصبية، ثم تذكَّرت موعد الخامسة.

نهضنا معًا، والحمامة تراقبنا.

- انتظر، طلب منِّي العودة في الخامسة، تحدث عن مهمة عليَّ القيام بها من أجله.

- إذًا لا تشرب. تعرف ما يصيبك عند الشرب يا أخي.

- نعم، أعرف.. اللعنة!

قلت الأخيرة صارخًا، وأكملت:

- حياتي مدمرة. لن تعود الأشياء إلى سابق عهدها أبدًا.

- لا تقل ذلك. لا شيء أكيد حتى الآن.

- نعم، لكن «جيرالد» يعرف كل شيء.

- لا شك في ذلك.

قالها بجدِّية. أخبرته:

- منحني اسمًا جديدًا أيضًا وهو «أزرق».

- لقد أطلق عليَّ «فينسينت».

- إنه يليق بك. فخطوط السكة الحديدية تلك تجعلك تبدو كـ«فينسينت» حقيقي.

- «أزرق»، همم... اسم مميز.

- لكنه لا يعجبني.

- انتبه إلى ما تقول.

قال مشيرًا إلى الحمامة التي تواصل النقر، لم أعرف إن كان عليَّ تصديقه أم الضحك!

- تخيفني كلماتك.

- لا يهم، تلك هي الحقيقة.

- اسمع يا أخي..

- عليك الذهاب، أعرف ذلك، اهدأ قليلًا.

تبادلنا عناقًا أخويًّا، وسرنا معًا نحو المحطة، ثم قلت متجهًا إلى الحدائق:

- إلى اللقاء.

وظل «فينسينت» واقفًا يراقبني وأنا أسير مبتعدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

قدماي اللتان سارتا كثيرًا مُجهدتان، وعيناي اللتان شهدتا الكثير مُلتهبتان. لم أنعم بلحظة راحة واحدة. أسمع صوت كدقات الساعة في رأسي. أسمع رنين جرس درَّاجة مُسرعة، وصوت سيارة مُتسارعة، سيارة تتسارع تدريجيًّا، ثم أسمع ذُعرًا، وصراخًا، وجلبة. كانت تلك الأصوات تستمر إلى ما لا نهاية.

استلقيت في الحديقة على ظهري، أنظر جهة الشمس من خلال فروع الأشجار، أشاهد أقواسًا من نور، ثم غيَّبني النوم. نمت بعمق، وحلمت مثل عادتي. أحلامي هشَّة بدرجة تثير دهشتي، لا أشعر بشيء عند الاستيقاظ غير الشمس على وجهي. كان الظل يتحرك. إنها الشمس تحرك كل شيء. نظرت إلى فروع الشجرة، رأيتها تمتد جهة السماء، نحو الشمس، تتضرع لها طلبًا للغذاء. الأشجار جميلة، راقصة، رشيقة ومرحة. إن جلست صامتًا فترة يبلغك صوت أوراقها، هكذا تتحدث الأشجار، بإسقاط الأشياء، تفقد الأشجار أشياءَ طوال الوقت عسى أن يجدها آخرون؛ لأن الشجر من طبعه العطاء.

فقدت في الطريق كمًّا لا يُحصى من الأشياء. طرق «كيب تاون» طويلة ومُلتوية. وأنا تائه على الدوام؛ لذلك أختبئ في «سي بوينت»، هل فهمت؟ هناك تنفتح عيناي، هناك أرى بوضوح. أحنُّ إلى «سي بوينت»، وأعرف أن العودة إليها استحالت إلى الأبد.

الهواء دافئ وطيب الرائحة بسبب ذلك الورد الذي يملأ الحديقة. رفرف الحمام على مقربة منِّي، رأيته يرقص قُرب أحد الفروع. أعرف الخوف خير معرفة، أعرف كيف يكون ذلك الشعور، أعني الشعور بالخضوع لمراقبة دائمة. كذلك أعرف دلالة سماعك دقَّات قلبك، وهي أنك وحدك. العالم يُراقبك، لكن الموسيقى لا يسمعها سواك، موسيقى جنونية تعزفها الدرَّاجات والسيارات المُسرعة. أعرف شعورك، حين يصل صوت دقَّاتك الخائفة إلى أذنك، حين تعضُّ على شفتك لتكتم خوفك، حين تقضم أظافرك إلى أن تتعرَّى أطراف أناملك وتتأذَّى كلما مسست شيئًا. أعرف الخوف، وأكرهه، أعيش معه، وبه، كل يوم. الشوارع غير آمنة، إنها طرق إلى الجحيم، مرصوفة بالزِّفت، زفت أسود. ثمَّة ما يراقبنا ونحن نيام، أرى في أحلامي أشياءَ مرعبة؛ أرى وحوشًا تكتم أنفاسنا. أكون شاكرًا أحيانًا حين أستيقظ؛ لأنني لم أبقَ نائمًا إلى الأبد، الأبد فترة طويلة، بماذا عساي أن أحلم إلى الأبد؟ إن كان لي خيار فسأحلم بالسباحة، لا شيء آخرَ، السباحة في الشمس طوال النهار.

تتسارع دقَّات قلبي حين أُفكِّر في «جيرالد»، كيف سأواجهه؟ الموت أهون من تلك المواجهة. يثير «جيرالد» رعبي. نظرت إلى الحمام، الحمام الغبي، وتساءلت: «كيف سأواجهه؟».

اليوم عيد ميلادي. اليوم أتممت الثالثة عشرة، يمكنني استشعار ذلك أيضًا، يمكنني رؤية تلك الأعداد، أراها بوضوح كلها، مجموعها ثلاثة عشر، ثلاثة لإلى جانب الواحد. عليَّ استيعاب ذلك جيدًا، عليَّ استيعاب ما يعنيه كوني راشدًا إن أردت البقاء. يحثني الجميع على ذلك باستمرار، يطالبونني بالنضج سريعًا، بسرعة البرق. هكذا كل شيء دومًا، كل شيء سريع. تصرَّف بسرعة، افهم بسرعة، وإلا تلاعب

بك أحدهم. سيضربونك كي لا تنسى. عندما تذهب إلى المرحاض وتشعر بألمٍ فظيع في معدتك وخصيتيك فستتذكَّر، وكلما جلست لقضاء حاجتك فستتذكَّر، ستتذكَّر أن الأشياء كلها ينبغي أن تكون سريعة، وستتغوَّط بسرعة لأن فرجك سيؤلمك بشدة إن لم تفعل. سيحرصون على تذكيرك بشتى الطرق.

عليك فعل ما يأمرونك به. إن قالوا اقفز، فعليك القفز. إن قالوا اجلس، فعليك الجلوس. وإلا حطَّموك. دائمًا ما يفعلون إن لم تفعل ما يقولون. تحدثني نفسي بضرورة طاعة «جيرالد».

نظرت إلى الشمس مباشرة، فأجهدت عيني، وعندما نظرت حولي رأيت نارًا. أرى نارًا كثيرة. ها أنا أزداد قوة، وأتذكر الدرس: لا شُكرَ لك يا «جيرالد»، لا شُكرَ لك. عليَّ تعلم ذلك، عليَّ استيعابه، لا شكرٌ لك. هذا ما يريد منِّي الكبار فهمه كي يتسنَّى لي البقاء حيًّا، هذا ما يقولونه، حتى «فينسينت» قاله لي.

تسكَّعتُ في المدينة ككلب ضالٍّ طيلة اليوم، بينما لكل من سواي وجهة يعرفها. سألت أحدهم عن الوقت، ثم قررت العودة إلى المنزل. «أزرق»، هذا اسمي الجديد. الجسر، هذا بيتي الجديد. سأعود إلى البيت، ها أنا أزداد قوة.

***

ذهبت إلى الجسر، وجدت سيارة «جيرالد» هناك، أسندت عُكَّازي إلى حائط الكوخ، ووقفت على الباب.

- كنت أنتظرك.

فتح الناموسية، وأدخلني.

- اجلس على الفراش.

حاولت التحكم في عيني على الرغم من الفضول الذي تملَّكني، كانت حجرته مظلمة وبلا نوافذ.

- اشرب.

ناولني شرابًا باردًا في زجاجة.

- أسعدني مجيئك المبكر. هل قابلت «فينسينت»؟

أجبته معترفًا:

- نعم.

- حسنًا.

سار إلى ركن في الحجرة، بينما جلست في مواجهة الباب والنور النافذ عبره.

ناولني بنطالًا رياضيًّا أزرقَ من خامة لامعة.

- ارتدِ هذا.

خلعت بنطالي بتوتر، وارتديت البنطال الأزرق، أخذ القديم إلى الركن، وسمعته يعبث بكومة ملابس.

قال يحدثني:

- لقد تعلَّمت مُعايشة الخوف.

لم أنطق. أغلق الباب، وأوصده. شعرت بالخوف. أشعل الشمعة، ووضعها على منضدة في مواجهة الباب. ثم سحب كرسيًّا إلى جواري.

- هل تعرف مَن أنا؟

كان يرتدي «تيشيرت» برتقاليًّا.

- عليك ألا ترتدي هذا اللون أبدًا، هذا لون لا يرتديه غيري سوى الشمس، هل تفهم يا «أزرق»؟

أومأت برأسي.

- لماذا أنت خائف؟ أجب بلا تفكير.

- أخاف الظلام.

- ماذا يخيفك فيه؟

- الوحوش.

- هل تظنني وحشًا؟

لم أجبه، فابتسم.

- هل تعرف مَن أنت؟

- ما عُدتُ أعرف شيئًا.

- لذا قصدتني، أنا جئت بك هنا. لقد انتزعتك من والديك. لقد قتلتهما.

تذكَّرت نصيحة «فينسينت»: «اطرح أسئلة ذات مغزى».

- قتلت والديك لأنهما كانا سيؤذيانك.

- لكنني أحببت أُمِّي، وهي أحبَّتني.

- أنت لم تحب أُمَّك، كان عدم رضاها كابوسًا يُخيِّم على حياتك، وفعلت كل شيء لإرضائها. لذا كرهك أبوك، كان سيقتلك.

حينئذٍ شعرت بدُوَار.

- تتساءل عن السبب، أليس كذلك؟

- بلى.

- أما تزال عطشانَ؟

- أنا عطشانُ دائمًا.

صَبَّ لي كوب ماء، فشربته على عَجَلٍ.

- ظنَّت أُمُّك أنها ملاكًا، أحبها أبوها أكثر من سائر الأطفال، وقد أورثتك ذاك الشيء، لذا كانت الناس تضربك طوال حياتك.

واصلت الاستماع.

- عليك السماح لها بالرحيل، في الليل عندما تنام تناديك، تحلم بها، أليس كذلك؟

- دائمًا.

صَبَّ لنفسه شرابًا باردًا من الكوب الذي استخدمته، وضعه على المنضدة، إلى جوار الشمعة، كانت الفقاقيع تتسابق إلى سطح الشراب.

سأل ثانيةً:

- هل تعرف مَن أنت؟

- لا يا «جيرالد»، لا أعرف.

خلع ملابسه، وجلس على الكرسي عاريًا، كشف الضوء عن أجزاء من وجهه وعضلاته القوية.

- هل تعرف مَن أنا؟

- نعم يا «جيرالد».

- أترى ما فعلته بك أُمُّك؟ جعلتك دُمية، مُغفَّلًا، تقول نعم لكل شيء.

- لا يا «جيرالد».

قلتها وأنا أحاول استيعاب ذلك الدرس أيضًا.

أمسك بمعصم يدي اليُسرى وأشار إلى ندبة عميقة في جسده.

- أتعرف ما هذه؟

- لا يا «جيرالد».

أدار لي ظهره، رأيت فيه ندبة هائلة كحيوان له قرون. بدت حيَّة على ضوء الشمعة.

- أحرقتني وأنت في الثالثة. هل تذكر؟

- لا يا «جيرالد».

- أحرقتني بالنار وأنا أحرق فراشك، منحتني ذلك التذكار، كي لا أنساك أبدًا، أنت أردت ذلك، هل تذكر؟

- لا.

- لقد سرقت ذكرياتك، أنسيتك ما فعلته بي.

قلت بتوتُّر:

- لديَّ سؤال.

- إذًا فلتسأل، اللعنة. لا تنتظر إذني دومًا.

- لكنني أخشاك، أخشى أن تضربني.

- اعتاد أبوك ضربك، هل كنت تخشاه؟

- لا يا «جيرالد».

- أترى ما فعلته أُمُّك بك؟

- كانت تغني لي.

- لكن هل ترى ما فعلته هي وأبوك بك؟

- ماذا فعلا؟

- جعلاك أقوى، فقد عرفت الخوف.

أومأت برأسي.

- ما تلك الندبة في ظهرك؟ إنها ثور، هل تميز قرونه؟

أومأت.

- وما تلك العلامة على معصمي؟

- تبدو كخروف.

- تقصد كبشًا؟

- ماذا تكون؟

- لا يهم.

- اليوم عيد ميلادي.

- كاذب. ليس يوم ميلادك، وأنت تدري ذلك، أترى ما فعله أبواك بك؟

- لا يا «جيرالد».

- علَّماك أن تبقى حيًّا، كان عليَّ قتلهما كي تتعلم ألا تسفك دماء الآخرين أبدًا، الدماء تخيفك، أليس كذلك؟

نظرت إليه وأنا أُفكِّر في الإجابة بنعم، لكني بدلًا من ذلك قلت:

- الدماء تسري في الجسد، هذا مجراها الطبيعي.

ضحك وتناول الزجاجة، شربها كلها.

- أتدرك ما الذي فعله بك «ريتشارد»؟

- لا يا «جيرالد». زادني صلابة؟

- جعلك تفهم كل شيء، كان عليك معرفة الجوع والعطش.

- لكنني أعرفهما بالفعل.

- دعني أُنهي حديثي.

رفع صوته، وطقطقت الشمعة.

- عليك معرفة كل شيء كي تعيش، الناس يُحاولون قتلك.

- مَن يحاول يا «جيرالد»؟ مَن؟

- الجميع، العصابات، والمافيا، وكل شخص، عليك معرفة ذلك، عليك معرفة الألم.

- لكنني أكره الألم.

كان يشتم خوفي، قال:

- كان عليك معرفة ذلك، كان عليك معرفة ما يعنيه كونك امرأةً، لذا فعلوا بك هذا، أعرف أنك تعرف بالفعل ذلك. أنت تنزف من دبرك عندما تتبرَّز، أليس كذلك؟

- لطالما كنت هكذا.

- هذا ما جنته عليك أُمُّك، أحبَّتك بشدَّة، حتى إنك وددت لو فهمت ما يعنيه كونك امرأةً، هل تدرك مدى سوء ذلك؟

- لا يا «جيرالد».

- تقول إنك في الثالثة عشرة، لكن عضوك كعضو طفل في الخامسة.

- أعرف ذلك.

- هذا ما جناه عليك أبوك. لذا كاد يقتلك. تمنيت ألا تكبر كي لا تفارق أُمَّك أبدًا، هل تفهم الآن؟

- لا يا «جيرالد».

- عليك العودة إلى «سي بوينت».

- لماذا؟

- دعني أُنهي حديثي.

رفع صوته فاهتز الكوخ قليلًا.

- عليك العودة إلى منطقتك، لقد كنت أراقبك، أعرف أين تمكث، عليك العودة والتبرُّز هناك، ثم الرحيل بلا عودة.

- أعرف امرأة هناك، إنها..

- دعك منها، إنها الخائنة، باعت كل ما جنيته للآخرين، هي أم الشرور، إنها الشيطان ذاته، ذاك الطعام الذي منحتك إيَّاه كان سبب فقدك لعضوك. كان الناس يسرقونك طوال حياتك. أدرك أبوك ذلك، لكنه ظل يضربك كلما عدت إلى البيت تشكو فقدانك لشيء ما.

- أذكر ذلك.

- كان أبوك قاسيًا. لقد غسلك بمائه، بمائه القذر. أتعرف ماذا كانت النتيجة؟

- لا يا «جيرالد».

- صرت أزرقَ العينين مُحبًّا للماء، ظمؤك لا يخمد؛ لأنه فعل الشيء نفسه بأُمِّك. قبل أن تولد، عندما كنت في رحمها، علَّمت نفسك السباحة، وحب الماء، كنت تدرك سوء الماء القذر منذ كنت في الرحم. أراد أبوك تدميرك، بالطريقة نفسها التي قُتل بها أخاه، لقد كره أخاه، هل تعرف ذلك؟ كره أخاه حتى إنه شهد مقتله، ولم يفعل شيئًا، اكتفى بالمشاهدة، لم يبكِ قط، كان عليه أن يبكي، أتعرف ما الذي حدث؟ تحوَّل الماء في عينيه إلى سُمٍّ، لذا كان أبوك شريرًا، جعل أُمَّك تغتسل في مياهه القذرة، أتدرك مدى سوء ذلك؟

- لا يا «جيرالد».

- إنه أسوأ من قتلك أحدهم، إنه مثل التبوُّل في اللبن، وسقيه لآخر.

صببت ماءً، وشربت.

- جيد، لطالما أنقذك الماء، لكن الآن عليك التوقف عن الاغتسال في البحر، هل تفهم؟

نظرت إليه ولم أقل شيئًا، ذهب إلى ركن الحجرة، وجلب طستين بلاستيكيين: أحدهما أزرق، والآخر برتقالي. أغلق الباب وصَبَّ في الطستين ماءً من برميل بلاستيكي شفَّاف، أعطاني خرقة صغيرة، الخرقة نفسها التي استخدمتها حيث

اصطحبني «ريتشارد». ناولني أيضًا صابونة «لايفبوي». وقفت على ساق واحدة في الطست البرتقالي، واغتسلت. اغتسلنا معًا، جفّفت نفسي بالخرقة. استخدم هو منشفة. ارتديت بعدها ملابسي الجديدة، وارتدى هو قميصه البرتقالي، وبنطالًا من الجينز الأبيض.

- أتعرف ما هذا؟

قالها مشيرًا إلى الـ»تيشيرت». أجبته:

- أسد.

- لا، هذا ملك، حيوان مفترس.

- مثلك؟

ابتسم، لكن وجهه لم يشرق، رأيت كل التجاعيد التي رسمها الزمان، كان لديه عديد من الأسرار.

- أنا صُلب، لا يستطيع أحد تدميري سوى النار، لذا اضطروا لحرق «ستاجيس» كي يقتلوه، وحدها النار كانت لتقتله، إن لم يحرقوه لما استطاعت الطلقات قتله.

سألني وهو ينظر في عيني:

- هل أنت جائع؟

- لا.

- حسنًا، عليك الذهاب الآن، فضوء الشمعة يخبو.

بلَّ إصبعيه، وأمسك بفتيل الشمعة فأطفأها، وتصاعد دخان أبيض، استنشقه، ثم فتح الباب.

- ارجع غدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

التقطتُ عُكَّازي، وسرتُ نحو «سي بوينت»، لم ينشغل ذهني في الطريق بغير «جويس»، وعند الوصول قرعت الجرس، ففتحت الباب صائحةً:

- أين كنت؟ لقد تعفَّن الطعام حيث أضعه دون أن يمسَّه أحد.

جذبتني من رُسغي إلى داخل الشقة. دعتني إلى الجلوس في المطبخ. أخبرتها:

- أنا في ورطة، وأحتاج إلى مالي يا «جويس».

- اسمع، لا تنادِني باسمي هكذا.

صفعتني على وجهي، وأكملتْ:

- أنا في عمر جدَّتك.

نظرت إليها مذهولًا. رجوتها:

- أرجوكِ يا خالة، هل يمكنكِ الاتصال بالبنك؟ أحتاج إلى مالي.

- مالك؟ بعد كل ما قدمته لك؟ لا يمكنك الحصول على ذلك المال، لن يعطيه لك البنك.

كانت تسكن عينيها نظرة باردة.

- تقصدين أنكِ لن تعطيه لي؟

صفعتني ثانيةً، صفعة قوية، ولم أهتم بالدم الذي أخذ يسيل من أنفي. قالت هي بلطف:

- انظر إلى ما اضطررتني أن أفعله!

وأسرعت إلى دورة المياه لتعود بورق حمَّام.

سألتني حين رأت أنفي جافًّا:

- أين الدماء؟

- بلعتها.

قالت مشيرة بإصبعها نحوي:

- أنت ولد شرير.

- أحتاج إلى مالي.

- لماذا تحتاج إليه؟ ألا أمنحك الطعام؟

- لكنني أحتاج إليه، أنا في ورطة.

- بالطبع، أنت في ورطة لأنك ولد شقي. انظر إلى ما فعلته بساقك. كما أن تأخرك في سداد الرسوم الأخيرة قد وضع حسابك البنكي في أزمة.

- ماذا تقصدين؟ أنا بحاجة إلى المال.

- ارحل من هنا، أنت لا تجلب إلا المتاعب، وها هو البنك غاضب منك أيضًا.

صرخت وهي تدفعني إلى الخارج.

- ابتعدي عنَي، أيتها القذرة.

كان العُكَّاز ما يزال في الداخل.

- أريد عُكَّازي!

أغلقت الباب بعنف في وجهي، لقد سرقت عُكَّازي أيضًا. فتحت بنطالي دون تفكير، وتبوَّلت على بابها بينما صيحات النوارس تدوي، ثم بصقت على البول قبل الرحيل.

اشتعل قلبي حيرة وغضبًا، ما بال تلكِ المرأة؟ أهي مجنونة؟ استندت إلى الدرابزين لأهبط الدَّرَج، في الخارج كانت تُحلِّق نوارس كثيرة، تبعتني وأنا أجاهد للسير، كانت تصرخ وتبكي، وصلت إلى الكورنيش، وسرت نحو شاطئ «بروكين باث»، وعندما مررت بمحل عمل «جويس» بصقت عليه. كانت النوارس ترفرف بجنون وهي تتبعني نحو الشاطئ.

ما تزال الشمس حامية، رأيت على الشاطئ قليلًا من الناس، وقررت التغوُّط في مرحاضهم. تجمَّعت النوارس قُرب صخرة كبيرة منتظرة، بصقت على بُقعة نومي المعتادة، ومزَّقت الكيس البلاستيكي، ثم تركته واتجهت صوب النافورة.

شعرت بأن الجميع ينظرون إليَّ، جررت جبيرتي وواصلت السير. اتجهت نحو باب قُرب النافورة يحمل لافتة «رجال»، بصقت قبل الدخول، وفي الحجرة الصغيرة وجدت على قاعدة المرحاض بولًا، نظفته ثم جلست، فكَّرت في «جويس» وأنا أتغوَّط، فبصقت أمامي. كانت تحاول قتلي، سيحرقها المال الذي سرقته منِّي. ستموت «جويس»، ستموت. راودت صورة ما مُخيِّلتي، كان هناك رجل أبيض بشعر أسود، تمعَّنت في تلك الصورة وأنا أُواصل التغوُّط على ورق المرحاض، أعرف هذا الرجل، يعمل في متجر شرائط فيديو جنسية قُرب محطة القطار، له وجه شاحب، راود مُخيِّلتي مشهد يجمعه بـ«جويس»، كانا يتضاجعان، بصقت وأنا أتغوَّط، وعندما انتهيت نظفت نفسي بكثير من ورق المرحاض، كان هذا كل ما تستحقه «جويس»، فلتأكل البراز، ضغطت الزر فاندفع الماء، وشاهدت الحمَّام يبتلع البراز، غسلت يدي في الحوض متجنبًا النظر في المرآة.

صادفت «بافانا» في الخارج، وقد أسعدني ذلك.

- أين كنت يا بُني؟

- ماذا أصاب ساقك؟

- لا شيء، أمر بسيط.

- معي بعض الحشيش، كنت على وشك شربه، أتريد بعضًا منه؟

أشرق وجهي.

- اسمع يا «بافانا»، عليك الاعتناء بنفسك. انظر إلى ملابسي، لم أعد أعيش هنا.

- يعجبني بنطالك.

راح يتحسسه بيده، كان يلمع في الضوء.

- ماذا عن ذلك الـ«تيشيرت»، مَن أعطاه لك؟

- «فينسينت».

- آه، «فينسينت»، رأيته اليوم، قال إنه سيعود إلى بيته.
- حقًّا؟

سرنا إلى شاطئ المثليين، لهم منطقة صغيرة على البحر، كأنها شُرفة كبيرة. هناك راقبنا شخص أسود ونحن نعد سيجارة حشيش كبيرة.

بادر «بافانا» بالعرض:

- يمكنك إشعالها.

يحبني «بافانا» امتنانًا لرعايتي إيَّاه.

- وأين ستمكث الآن؟

سألني وأنا أُدخِّن أول نفس. أغلقت عينيَّ، وملأت رئتيَّ بالدخان. سمعت صوت النوارس، كانت عائدة للنوم في بيتها.

سألته وأنا أناوله السيجارة:

- هل أنت جائع؟
- لا. اترك القليل لي.

كان جائعًا.

- اسمع، لا يمكنك المجيء معي.

كان بإمكاني قراءة ذلك السؤال في عينيه.

- أنت تعمل لديهم الآن، أليس كذلك؟
- مَن؟
- العصابات.

واصلت التدخين، فارتخت كتفاي، وشملتني السكينة التي زحفت من ظهري حتى قدميَّ.

- كم افتقدت هذا!

رأيت الماء يرتفع ويتحطَّم على نفسه.

بدا «بافانا» نحيفًا، بدا أكثر نحافة من قبل.

- يمكنك العثور عليَّ في المدينة، حيث أركن السيارات.

ابتسم «بافانا»؛ لأنه بذلك ضمن وجبة طعام، ثم أعطيته السيجارة، دخَّنها كأنما يمسك برقبة زجاجة. تآكلت سريعًا، وما لبثت أن انتهت.

جلسنا نستمع إلى الموج، كان شعورًا يشبه الطيران، فتحت ذراعي، ووقفت لأفرد ظهري.

- يقولون إن «جيرالد» حطَّم جسدك.

سرتُ إلى حافة الماء، وبصقت فيه، وقفت هناك في الريح العاصفة، ازدادت الشمس قُربًا من الماء، واستمر مرور القوارب، هل تستطيع رؤيتي؟ ما مقدار المسافة بيننا؟ حجمها صغير كسُفُن الأطفال البلاستيكية، مرَّ ذلك الرجل الأسود

بجواري، ونظر إليَّ بابتسامة بدت مألوفة نوعًا ما، يبدو رجلا سيئًا، ممن يسرقون حقيبة امرأة عجوز.

نظرت إلى الخلف، فوجدت «بافانا» قد رحل. بعدها غادرت الشاطئ، وجلست على دكَّة في الحديقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

أرى كل شيء من هنا، وأسمع كل شيء، أعني كل شيء تمامًا؛ الموسيقى، وخطوات الأقدام، ونباح الكلاب، وتسارع السيارات. يمكنني سماع كل ذلك، حتى دقات قلبي. وكل شيء يبدو منطقيًّا، لا أعني أنه ينال إعجابي، أو سخطي، كل ما أعنيه أنه منطقي. هرشت خصيتي، وفكَّرت في كل المال الذي سرقته منِّي «جويس»، إنها عاهرة، عاهرة لعينة، كان مبلغًا كبيرًا.

مرَّ منحرفون بي، نظر إليَّ أحدهم، لكنني لم أُعره اهتمامًا، اكتفيت بالنظر إلى البحر، جلس آخر إلى جانبي وباعد ما بين ساقيه فرأيت عضوه بحجم ثمرة موز كبيرة. قال وهو يحك كتفه بي:

- يعجبني بنطالك.

- أنت إنسان قذر.

قلتها بلا تفكير.

ضم فخذيه، لكنه لم يرحل.

- ماذا تريد؟

- يمكنك قضاء الليلة والنوم معي إذا أردت، فأنت تبدو نظيفًا.

فكَّرتُ بالأمر دون أن أقول شيئًا. فقال:

- حسنًا، سأطهو لك، ما رأيك؟

- هل تعرف زوجتك ما يحدث؟

أجاب بشيء من الارتباك:

- لا، إنها في عطلة بعيدة.

- حسنًا، اخلع خاتم زواجك، لا أريد رؤيته.

قلتها بنبرة آمرة.

- هذا لك.

وخلعه.

- لماذا ترتديه؟

- لأنني متزوج.

- لا أقصد ذلك، أقصد..

- آه، لا أعرف، أظنها عادة، إضافة إلى الخوف من فقده.

قلت في نفسي: «لكنك فقدت عقلك».

سألته:

- هل لديك أطفال؟

- اسمع، لا أريد التحدث عن عائلتي. هل ستأتي أم لا؟

ابتسمت وأنا أراه يُخفي عضوه الشبيه بالموزة الكبيرة.

- فقط لننتظر غروب الشمس.

جلسنا على الدكَّة صامتين، بينما الشمس تمس الماء بلطف، لطالما تخيلت انبعاث البخار في تلك اللحظات، لكنه لم يحدث، فقط غرقت الشمس في الماء بهدوء واختفت، لتكتسب السحب حُمرة النيران، ويتلون الجانب الآخر من السماء بجميع درجات الكدمات.

- علينا الذهاب، الوقت يتأخر.

كان يخشى أعيُن الناس.

أخبرته وأنا أنهض:

- سأفعل ذلك مقابل خمسين.

- فراش، وطعام، وخمسون راندًا! أنت مفاوض جشع.

- هل قضيت ليلة في العراء من قبل؟

سألته وأنا أنظر في عينيه.

لم يرد، بدأ السير فتبعته.

إن الأشخاص ذوي البشرة البيضاء مخلوقات نتنة.

كنت أسير ببطء دون العُكَّاز، فتذكَّرت «جويس»، كم هي قذرة هذه المرأة!

- ماذا حدث لساقك؟

- كسر نتيجة سقطتي.

- ماذا انكسر، ساقك؟

- لا، هذا الجزء.

وأشرت إلى كاحلي.

- هل التهب؟

- لا، سأزيل تلك الجبيرة خلال أسبوعين.

- أفهم قصدك.

توقفنا عند سيارته أولًا، أخرج صندوقين وكيسًا بلاستيكيًّا من النوع المستخدم للقمامة ناولني إياه لأحمله. ذهبنا إلى مجمع سكني جميل قُرب شاطئ «صن سيت»، كان أفضل ما زرت من المجمعات.

ألقى الرجل التحية على حارس يقف في الخارج، رجل يُدعى «ألفريد»، رمقه الأخير بنظرة شريرة لم يلاحظها، أخرجت لساني عبر الفجوة التي أصبحت بين أسناني، وتصنعت حولًا في عيني.

- يفضل ركن السيارة في الجراج يا سيد «ليبوفيتز»، فقد جرت عمليات سطو كثيرة خارج المبنى.

خرج صوته عميقًا.

- حسنًا يا «ألفريد».

دخلنا المصعد، وصعدنا العديد من الأدوار، كدنا نصل إلى الطابق العلوي، ثم غادرنا المصعد ومررنا بصف من النوافذ الكبيرة المطلة على البحر.

- هل تسكن هنا؟

ابتسم وربت على مؤخرتي برقَّة، دخلنا شقته، كل شيء أبيض في الداخل، كل شيء تقريبًا، غمرتني راحة أدهشتني، تناول الكيس البلاستيكي ودعاني للجلوس. كان سلوكه كريهًا؛ سلوكًا مثاليًّا مزعجًا، يعاملني كأنني كلب مليء بالبراغيث. تجاهلت سلوكه، وتعاملت على سجيتي، جلست على أريكة مكسوة بالجلد الأبيض، كانت شديدة النعومة، يمكنني النوم عليها. أما هو فكان منشغلًا في الغرفة الأخرى بأمر ما، سمعت أدراج مطبخ تفتح وتغلق. تململت وانحرفت عيني ناحية التليفزيون الكبير، عندما فتحته شعرت بصدمة لرؤية انعكاس صورتي على الشاشة. اقتربت فاقترب قريني. جلست، فجلس أيضًا، حدَّقت في نفسي بغباء، هؤلاء البيض أشرار، جال ذلك بخاطري وأغلقت التليفزيون. جلست هناك منتظرًا، عاجزًا عن التخلص من الدهشة، كان أمر ذلك التليفزيون عجيبًا، أين الكاميرات؟ تعجبت وتجولت بنظري في الغرفة، لا يمكنني رؤية أي كاميرات، مجرد غرفة أنيقة بها عديد من الأشياء الجميلة، إنه فتى مريض، سيسجل الأمر برُمَّته.

- ما رأيك في الاستحمام معًا أو لًا؟

قالها عندما رجع.

- أتعني أنك مثار؟

- هل أنت صريح هكذا دومًا؟

- أتريد مضاجعتي؟

- يا إلهي!

سار إلى بيانو، كانت تعلوه مجموعة صور عائلية، أدارها جميعًا كأنما يخشى أن ترانا.

- اسمع، إن كنت ستواصل ذلك فلتغادر الآن. لقد حاولت معاملتك بلطف.

- آسف.

قلتها وجززت على أسناني.

- كُفَّ عن ذلك فقط.

- اسمع، هكذا يجري الأمر، يتحدث جميعهم إليَّ هكذا.

- حسنًا، أنا لستُ واحدًا منهم.

- لا تقلق، لن أسأل عن اسمك.

- جيد.

- فقط استرخِ. أنا أيضًا أريد الحصول على بعض المتعة.

كانت كذبة تصحبها ابتسامة.

- جيد، آه.. أنا متوتر الآن.

قالها وذهب إلى الحجرة الأخرى.

- هل يمكنني تشغيل التليفزيون؟
- التليفزيون لا يعمل.
ثم عاد بكأس من النبيذ.
- هل يمكنني خلع الـ«تيشيرت»؟ الجو حار قليلًا.
- نعم، بالتأكيد، ويمكنني تشغيل التكييف أيضًا.
- لا تقلق، هذا يكفي.
وخلعت الـ«تيشيرت».
- تملك أكثر عينين زرقاوين إبهارًا بالنسبة لـ..
- بالنسبة لشخص داكن البشرة.
ابتسمت، فقال بارتباك:
- نعم. هل هي حقيقية؟
كان أغرب سؤال سمعته في حياتي.
- ماذا تقصد؟
جلست بالقُرب منه.
- أقصد، هل هي عدسات لاصقة؟
- ماذا؟
- لا عليك، إنها حقيقية على الأغلب.
وضع كأسه على المنضدة، ووضعت يدي على مفرق ساقيه لأثيره، ففتح بنطاله واندفع عضوه إلى الخارج، وبدأت أُداعبه بلطف.
- يعجبك هذا، أليس كذلك؟
أعرف كيف أُمتِّع الرجال، أعرف أولاد الحرام أمثاله، فعلت ذلك ألف مرة، كلهم يحبون مداعبتك لما بين خصيتيهم وفرجهم، لكن عليك ألا تفعل ذلك بقسوة، من الأفضل لو داعبته قُرب البطن، كلما ازداد عمرهم قل انتصابه جهة البطن، كان لأحدهم عضو يتجه للأسفل، لكنه كان صلبًا، لم يكن كبير السن كذلك، ربما يعاني مشكلة ما، مثلي مسكين، تخيل امتلاكك عضوًا مكسورًا.
كما لا أستفسر إطلاقًا عن مدى رضاهم، يكرهون هذا السؤال، ربما يذكرهم بصديقاتهم أو زوجاتهم أو أيًّا كان الشخص الذي يخونونه. هذا بغض النظر عن الطلبات الغريبة التي تحصل عليها عند طرح ذلك السؤال، لا أحب التفكير في بعض الأشياء التي اضطررت لفعلها مع أولاد الحرام.
- هيَّا إلى دورة المياه.
- انتظر. أعاني مشكلة في ساقي، لا يمكنني الاغتسال.
- إذًا فلتغمر نفسك بالماء، وسأغتسل أنا.
ذهبنا إلى دورة المياه، بها بلاط أبيض تنعكس عليه صورتك. وعلى أحد الحوائط مرآة كبيرة، يمكنك رؤية جسدك كله عندما تتعرَّى. كذلك يوجد مرحاضان، لكن

بأحدهما صنابير صغيرة، يبدو أنه مكسور.

نظرت إلى المرآة، وقلت:

- لم أرني هكذا من قبل.

- تقصد عاريًا؟

- لا، رأيتني عاريًا من قبل، لكن ليس في مرآة بهذا الحجم وبإنارة كتلك.

- فهمت.

شعرت بالسخافة. فتح الدُّش فانهمر الماء.

- هل أنت جائع؟

- لا.

كنت أكذب. رحت أتأمل حوض الاستحمام الأبيض.

كانت الصنابير من الذهب، هل تصدق ذلك يا «أزرق»؟ ذهب، الصنابير اللعينة مصنوعة من الذهب، لا بد أن للرجل تلالًا من النقود. أغلق الصنبور، وناولني صابونة ومنشفة، دخلت إلى حوض الاستحمام، وأسندت رُكبتي إلى الحافة.

قال وهو يدخل الحوض:

- أنت فتى ذكي.

اللعنة، من حسن الحظ أنني اغتسلت عند «جيرالد»، وإلا لكان قد رأى الطين على جسدي.

اغتسلنا على عجل، ثم نظفنا حوض الاستحمام بإسفنجة.

خرج من الحوض وعضوه تهتز في جميع الاتجاهات، ولما مال بجسده ارتطمت بوجهي، فصافحتها كما يفعل ذوو البشرة البيضاء قائلًا: «فرصة سعيدة»، فضحك قليلًا وأمسك بيدي.

ذهبنا إلى حجرته، فيها نافذة كبيرة وفراش، دعاني إلى الجلوس، وذهب ليغلق الستائر، تقافزت في جلستي على فراشه الكبير، كان فراشًا ناعمًا ومتينًا.

- أهذه غرفتك؟

- لا، إنها حجرة الضيوف.

وفتح الأنوار.

مدَّدني على الفراش الواسع، وبدأ في مُداعبتي، لم أُجرِّب هذا من قبل. شرعتُ أُقهقه.

- معذرة.

تجاهلني، وواصل لهوه، لكن المتعة استحالت مع الوقت حزنًا.

قلت له:

- سأُداعبك.

استدار، واستلقى على ظهره، أمسكت بعضوه، وبدأت أداعبه، فتنهَّد تنهيدة طويلة، داعبت الجزء الذي يثيرهم، حين استعملت فمي تأوَّه قليلًا، وأغلق عينيه، لم أُفكِّر في شيء، فقط واصلت المُداعبة، بدأ يتنفس بشكل مضحك كأنما يوشك على الإغماء، ثم جذب رُسغي، ولتندفع نافورة من عضوه وتهبط على صدره، وينتهي الأمر في الحال.

عادة ما يستلقون جميعًا في تلك المرحلة على ظهورهم ولا يريدون لأحد أن يمسهم. كان كل ما أتمناه الآن هو أن يفي بوعده.

- أمهلني قليلًا من الوقت فقط.

- أتقصد أنك ما تزال تريد المواصلة؟

- ألست أنا مَن يدفع هنا؟

- إنه مجرد سؤال.

ورحت أُداعب كُراته.

بعد فترة انتصبت موزته ثانية.

- تمدد، أريد إفراغه فوقك. هل تمانع؟

- لا، لكن ليس على الوجه.

بدأ في مداعبة نفسه وهو فوقي، يستمتع جميعهم بذلك، أراهن أنها تشعرهم بمتعة التبوُّل. بعد فترة طويلة، أفرغه على صدري.

- شكرًا، كنت أرغب في ذلك طوال اليوم.

- الجو حار بعض الشيء، أليس كذلك؟

فتح التكييف، وذهبت إلى دورة المياه لإحضار ملابسي.

- لا تشغل بالك بها.

سرنا في البيت عُريانين، وشعرت كأن الناس تراقبني، أو بالأحرى أن الكاميرا تتبعني، كان يمشي مرتديًا شبشبه، تبعته إلى المطبخ، حيث انفتح باب فضي كبير، وهلَّ نسيم بارد. رأيت الأرفف مكدسة بالطعام.

- ماذا تشتهي؟ يمكننا تناول شطائر الديك الرومي، أو الجبن.

- ديك رومي وجبن.

أخرجهما من الثلاجة، وراقبته وهو يعد الطعام، كان بارعًا في استخدام يده.

- لو سمحت، ما عملك؟

- أعمل في بنك استثماري.

- أقصد ماذا تفعل؟

- أتعامل مع كثير من المال.

- لا بد أنها وظيفة شاقة.

- إنها كذلك بالفعل.

- إذًا فأنت تعمل هنا في «كيب تاون»؟

- هذا صحيح.
بنك استثماري! إنه - في الغالب - ذلك الحقير الذي أخذ نقودي، عدت إلى التفكير في «جويس».
- هل يصعب فتح موقع بنكي؟
- تقصد حسابًا؟ في الواقع، تلك ليست من مهامي.
- آه. إذًا فأنت أحد المديرين؟
- شيء كهذا، أشرف على كثير من الناس، لكنني أفهم قصدك.
جلسنا إلى الطاولة، وصبَّ لي عصير برتقال في كوب طويل.
- يا له من شعور غريب!
- ماذا تعني؟
- التجول وتناول الطعام بغير ملابس هكذا.
- ألا يعجبك ذلك؟
- لا، شعور غريب، لكنه جيد أيضًا.
كان يمضغ بفم مغلق. أما أنا فتناولت الطعام بسرعة كعادتي.
سألني بعد أن أنهيت أربع أرغفة من الخبز:
- هل حصلت على كفايتك؟
- نعم.
أردت شكره، لكن الكلمة أبت الخروج، ذهبنا إلى الحجرة الأخرى، حيث التليفزيون الكبير، وشغل الموسيقى.
- أتعرف ما هذه؟
- لا، لكن سمعتها من قبل.
- تلك موسيقى كلاسيكية.. «كارل أورف»، و«كارمينا بورانا»، إنه كـ... كمغني الراب المفضل لديك، أو أيًّا كان مَن تستمع إليه.
جلس على كرسي يسع شخصًا واحدًا والتقط بعض السجائر من على منضدة بجواره.
سألته وهو يشعل واحدة:
- هل يمكنني الحصول على واحدة؟
سحب واحدة دون إخراجها من العلبة، ثم قرَّبها منِّي بحيث تطل السيجارة في وجهي، أخلاقه جنونية، يتصرف بحرص طوال الوقت.
انتشينا في صمت، واستمعنا إلى الموسيقى، كانت الأغاني طويلة، لكن الموسيقى أعجبتني، لها أثر ما في النفس يساعد على الاسترخاء.
قلت بعد فترة:
- لكنها موسيقى عنيفة.

- أليس كذلك؟ ليست لذوي القلوب الضعيفة، استمع إلى هذا الجزء.

اهتزَّت الأوتار بحماس، وغنَّت الفرقة مع قرع الطبول.

- ما تلك الآلة؟

- كمان.

- أنت تحب الموسيقى، أليس كذلك؟

أسكتني:

- ششششششت، أنصت.

استمعنا للموسيقى قرابة ثلاثين دقيقة قبل أن أغفو، وعندما أيقظني كان مرتديًا ملابسه بالكامل.

- أحتاج إلى نقل السيارة إلى الجراچ بالأسفل، لا تخرب شيئًا، آه، لا يمكنك مغادرة المبنى من دوني، لذا إياك أن تسيء التصرف، سأعود بعد قليل.

ما إن غادر حتى شغَّلت التليفزيون ثانيةً، رأيت هذه المرة الغرفة التي جمعتنا، ذهبت إليها بحثًا عن الكاميرات، لكنني لم أكتشفها، بدأت أشعر بالخوف من السير عاريًا، أخشى أن يكون متطرف جنسيًا! ارتديت ملابسي وتجولت في الغرف مفتوحة الأبواب فقط، وجدت غرفتين بأبواب مُوصدة. إذًا هكذا يعيش العاملون في البنوك، مراقبين دائمًا، لا أريد مالًا كماله إن كان سيتوجَّب عليَّ العيش هكذا، فالخضوع الدائم للمراقبة لعنة، فكَّرت في ذلك، ثم أغلقت التليفزيون.

جلست على الأريكة وتسلَّل شيء من الحزن إلى نفسي. لكن لا، عليَّ ألا أحزن، عليَّ أن أكون قويًّا. أنا قوي. نهضت، وتوجهت إلى المطبخ، شربت الماء من الصنبور، وضعته بفمي، وشربت حتى صرخت معدتي مكتفية، حينها شعرت بالتحسن، وعدت إلى الأريكة، لماذا شعرت بالحزن؟

لأن أُمِّي لم تحبني.

«جيرالد» قاسٍ.

كانت تلك أقبح عبارة سمعتها في حياتي، أسوأ من الدهس تحت عجلات حافلة. فكَّرت في أُمِّي، فأصابتني الحيرة، لا، لقد أحبَّتني، قلتها لنفسي، وأنا أيضًا أحببتها، بغض النظر عما قاله «جيرالد»، فهو كـ«ألين»، يريد التحكم فيَّ. نظرت حولي ولاحظت غياب أي حمام غبي يراقبني، مجرد كاميرات مخبأة هذه المرة، لا يترك المرء لحاله مطلقًا إلا عند الميلاد والوفاة. وعند الوفاة لا يهتم بك أحد حقًا، فقط يهتمون بما تتركه لهم، أذكر أن أبي قال ذلك عن جدِّي بعد وفاته، تمنى أن يترك له تلك الساعة، ظل يقولها، لكنه لم يحصل عليها، حضر الأقارب قبلنا، واستولوا على أشياء جدِّي، لا أريد التفكير في عائلتي، لكن شيئًا ما يدفعني إلى ذلك.

فيما سأفكر؟ ماتت أُمِّي. مات أبي. مشيت إلى «كيب تاون» مع «ماندلا»، أقصد «فينسينت». وها أنا الآن هنا، بلا كلمات لأقولها، ولا خواطر لأفكِّر فيها، لا يمكنني الكتابة، لا يمكنني الاتصال بأقاربي، لا هم يهتمون بي، ولا أنا أفتقدهم، لا أفتقدهم لأنهم لم يمنحوني شيئًا قط، ولا بأس بذلك، فهم - على الأقل - لم يسببوا لي الأذى

ككبار «كيب تاون». أشعرتني تلك الخاطرة بالتحسن. أترين يا «سي بوينت»؟ ها أنا أزداد قوة.

***

عاد الزبون فوجدني مرتديًا ملابسي.

- ماذا؟ من قال إننا انتهينا.

خلعت ملابسي في الحجرة، ققفز عضوه خارج بنطاله مرتجًّ ثانيةً وهو يخلعه.

- انتظر.

وأسرع إلى الغرفة الأخرى ليشغل الموسيقى، كانت موسيقى مختلفة، لكن لها الأنين وصوت الأوتار ذاتهما.

- هذه مقطوعة المواسم الأربعة لـ»فيفالدي»، لطالما أردت فعل ذلك.

استلقى فوقي وحك فخذيه في جسدي وقال:

- لماذا عضوك غير منتصب؟

فكَّرت في «توني براكستون»، فنهض عضوي.

- هذا أفضل.

وواصل الحك.

- أرى أن تفرغ مائك معي هذه المرة.

- أنا جاهز.

- بالفعل؟ بهذه البساطة؟

- أجل.

- حسنًا، انتظر، وسأخبرك.

لم يخبرني، فقط دارت عيناه في بياضهما، وأخذ يهمهم مع الموسيقى.

- يا للسماء!

أخذت الموسيقى تتصاعد. سألني:

- مستعد؟

- نعم.

حاولت ألا تثير نظرته ضحكي.

ثم سقط فوقي مُتنهِّدًا وقال:

- كان هذا عظيمًا، لقد بلغت بي الذروة، أنا مُنهك تمامًا.

- لم يكن هذا صعبًا.

- إنها قمة الجمال، أنت والموسيقى معًا!

ثم نهض ليجفف نفسه، ألقى بالفوطة عليَّ، أمر غريب، عادة ما يناولني الأشياء. ارتدينا الملابس، وذهبنا إلى حجرة الموسيقى حيث جلس على الكرسي يدخن وحده. قلت محاولًا كسر الصمت:

- تحب الموسيقى، أليس كذلك؟

لم يجب، يبدو حزينًا، غاضبًا قليلًا أو مجروحًا، لا يمكنني التحديد، من الصعب فهم الكبار.

- إنه الشتاء.

- ماذا؟

- الموسيقى، تُدعى «المواسم الأربعة»، وهذا هو فصل الشتاء.

رحت أنصت.

- استمع جيدًا. هل ترى الأشجار عارية من الأوراق؟

أشجار! أنا أعرف الأشجار، رحت أنصت إلى الموسيقى، ثم ذهبت إلى الغرفة الأخرى وجلست علي الأريكة. كان يحاول استدراجي، يحسب نفسه ذكيًّا، لكنه ذكي بالتأكيد، فهو يملك بنكًا، هو و»جويس» عصابة واحدة، عليَّ تذكُّر ذلك.

أخبرته عند عودتي:

- أنا مُتعب.

- أنت على وشك الاستماع إلى أحد أعمال «موسورسكي».

- أنا مُتعب حقًّا.

وافتعلت نظرة بريئة.

- حسنًا، تعالَ.

عُدنا إلى الحجرة وكشف الفراش.

- هل ستكفيك تلك الوسادة؟ يمكنني إحضار أخرى إن أردت.

- لا، هذا جيد، أحب النوم دون وسادات.

إنها حياة الشوارع، هكذا تحدثه نفسه، كنت أسمع صوت أفكاره، لكن أخلاقه الجنونية تمنعه من قول ذلك.

- أين ستنام؟

- لا أعرف، ربما أنام هنا، لا أعرف، طابت ليلتك.

وأغلق الأنوار ثم غادر تاركًا الباب مفتوحًا.

***

صعدت الفراش، لكن النوم لم يأتِ بسهولة، حدَّقت في السقف محاولًا عدم التفكير، فالتفكير الكثير مُضر، فكَّرت في الكبار الذين أعرفهم، كلهم مجانين، لا بد أنهم يدخنون الحشيش، وهذا الأحمق المسكين هنا، إنه لا يعرف رأسه من رجليه. لكن لديَّ على الأقل بنطالًا و»تيشيرت» جديدًا، وإن كنت سأحتاج إلى سُترة جديدة للأيام الباردة. سأشتري سُترة من «لونج ستريت». يمكنني العثور على واحدة جيدة هناك، لكن الحذر واجب، لن أتسرَّع في الشراء، عليَّ شراء سُترة مناسبة، نصحني «فينسينت» أن أكون أكثر الأشخاص سوادًا. لم أفهم إلى الآن معنى ذلك، قال إن عليَّ الشراء من البيض اللعناء، يمكنني ذلك الآن؛ لم يعد استئذان «ألين» ضروريًّا،

ولا أظن «جيرالد» سيمانع، بل أظنه يريد منِي الاعتماد على نفسي، لن أستأذنه، فقط سأبتاع السُّترة، هذا صحيح، إنه الدرس إياه: لا شكر لك يا «جيرالد». سأبتاعها دون استئذان.

آه لو أستطيع النوم الآن! رقبتي تؤلمني. يجب أن أنام الآن. سأحصل غدًا على سُترة جديدة، إنه أمر مشوق، لستُ مضطرًا للتفكير في «ألين» بعد الآن، ولا حتى «جويس»، تلك العاهرة، أتمنى لو يسلق فرجها كله، هي وذلك الأبيض الغبي الذي يمارس معها أشياءَ قبيحة في الظلام، أتمنى لو يتعفن عضوه أيضًا. سأفتقد «سي بوينت»، لكني سأعود عندما أستطيع، فقط سأحاول تجنبهما، سأظل في شارع الشاطئ، وسأبتاع منشفة، فربما أتمكن يومًا من الغطس في حمام السباحة ذلك وشراء المثلجات كما تمنيت دومًا، سيكون كل شيء على ما يُرام، أستطيع تحمل شرورهم، حتى شرور «جيرالد».

أتمنى ألا يغادر «فينسينت»، لماذا قال «بافانا» ذلك؟ هل كان يعبث بي هو الآخر؟ لا، «بافانا» يحبني، لن يقول ذلك إن لم يكن حقيقيًّا. لا يمكن أن يغادر «فينسينت»، إنه كل معارفي في «كيب تاون»، لن يكون لديَّ أحد الآن، ولكل شخص علاقاته، حتى وإن كانت شخصًا واحدًا في العالم كله، لا، لا يمكنه المغادرة، سأتحدث إليه غدًا، فأنا أعتبر «فينسينت» عينيَّ، هو أكبر منِّي سنًّا، رأى الكثير، وجرب الكثير، لا أظنه يخشى شيئًا الآن، كل شيء يبدو له عاديًا. «فينسينت» كبير، لكنه ليس كالآخرين، فهو لا يتلاعب بك، يقولها بصراحة، أحيانًا ما تكون الظروف صعبة، لكن ذلك لا يقلقه، «فينسينت» كما هو: «ماندلا»؛ الفتي الذي كبرت معه في «مشينجفيل». إنه شخص جيد، دائمًا ما يعتني بي، كل ما يقوله يفيدني، ويساعدني لأكون مثله، رجلًا، كبيرًا.

غيَّر الرجل الموسيقى، كانت الموسيقى الأشد حزنًا على الإطلاق، لكنه حزن لطيف لا يشملك فجأة، بل يمر خلالك، حزن ناعم، نظرت إلى الضوء خارج باب الحجرة وتساءلت عما يفعل، لكن الإجهاد منعني من النهوض، اكتفيت بالاستماع إلى الموسيقى وأنا أتسول النوم.

يمكنني سماع البيانو، نغماته هي الأكثر نعومة، خفيفة كأنها تطير، ترتفع وتهبط كنورس مُحلق. إنه رجل مخبول، يجب أن تكون مخبولًا لتستمع إلى موسيقى كهذه، ربما يستمع إليها مع زوجته أيضًا، لكنها لا تعرف ما يدور في رأسه، ذلك جنون، تسارعت النغمات قبل أن تستحيل نغمات بطيئة هادئة، دائمًا ما تنتهي الموسيقى بلطف، حين انتهت الأغنية، أغلقت عينيَّ وامتصصت كل ما في تلك الحجرة الدافئة من موسيقى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

أيقظني مبكرًا، قبل الشروق، وطلب منِّي ارتداء ملابسي. بدا مختلفًا، يتحاشى النظر في عيني عند تردده على الغرفة لتفقد همتي في ارتداء الملابس. عندما رأيته في بذلته التي زادته طولًا تذكَّرت الأشجار، تلك الشجرة التي تنمو باستقامة وعلو وتخرج منها الإبر الخضراء.

أعطاني مائة راند، وقادني إلى الخارج. كان «ألفريد» يراقبني كقط، كان يراقب كلينا وهو يتظاهر بقراءة الجريدة.

- صباح الخير يا سيد «ليبوفيتز».

نظر إليه السيد، وأجاب باقتضاب:

- أهلًا يا «ألفريد».

أراهن أن «ألفريد» أعتاد تلك الزيارات عند غياب السيدة «ليبوفيتز» في عطلة مع الأولاد، لكنه لن يقول شيئًا. فهو يعمل لديهم وعليه حمل قذارتهم.

وضعت النقود في جيبي وانطلقت، فكَّرت في عُكَّازي خلال السير، ماذا ستفعل به تلك العاهرة الغبية؟ سلكت طريق الكورنيش باتجاه «جرين بوينت»، لكنه استغرق وقتًا أطول بسبب ساقي. لمحت «ألين» في الجانب الآخر من الطريق، مرتديًا نظَّارته الـ»ريبان» بعدساتها السوداء التي تمنعك من تحديد موضع بصره، لكني أعرف أنه يراني، أعرف أنه يرى بنطالي الذي يلمع في الضوء. إنه أخرق، خطر ذلك على بالي. كانت تقف إلى جانبه فتاة بيضاء أخرى ذات شعر أشقر طويل. لا يعمل «ألين» إلا مع الفتيات بيض البشرة، ربما لسهولة السيطرة عليهن، وإن جادلت أحداهن فتكفي صفعة واحدة لإسكاتها إذا كن غير مُنتشيات، تلك العاهرة الأخرى التي ضربها كانت غبية، كانت مُنتشية ومجادلة كالفتيات المُلوَّنات، إنهن كائنات نتنة، سليطات اللسان ومتعجلات، متى يرين رجلًا سائرًا، أي رجل كان، يحاولن إغراءه بفروجهن، يناديه: «ألا تريد بعض المتعة، يا عزيزي؟»، فإذا لم يرغب الرجل في دفع مائتي راند لقضاء وقت ممتع كن أول مَن يشتمنه: «يا لك من مُخنَّث!». أما الفتيات السود فلسن مثلهن، في أعيُنهن شيء من الغضب والكتمان، تتحدث الفتيات السود بأعيُنهن، ينظرن إليك فقط، فإما أعربت عن رغبتك أو واصلت السير. أنظر إلى الأرض دومًا عندما أمرُّ بهن، فأنا أدرك مدى قوتهن وأخشاها، أشعر بأن بعضهن قادرات على تحطيم رجل ضخم بأفخاذهن القوية، كما يمكنهن إفراغ مخزون أي فحل كائنًا مَن كان.

عبرت «جرين بوينت»، وذهبت إلى المدينة. ما زلت أُفكِّر في شراء سُترة على الرغم من حرارة الجو، لم أرَ «فينسينت» حين اقتربت من «صب واي»، لكنني وجدته في مكان لهوه المعتاد، حيث ينام ليلًا، يجلس قُرب الرصيف بحقيبة ممزقة. بادرني بالحديث:

- كنت في انتظارك يا أخي.

- قل لي إنها شائعة.

- أحتاج إلى الرحيل فترة.

- لماذا؟ مما تفر؟
وجلست بحرص إلى جواره.
أجابني مازحًا:
- أفر منك.
- أرجوك لا تمزح. ها أنت تتركني، وما لي سواك في «كيب تاون».
- ستكون بخير.
- أيمكنني مرافقتك؟
- لكنك لا تملك المال الكافي. سأستقل القطار، وقد ادَّخرت بعض المال لذلك.
- لا يمكنك المغادرة، سيقتلونني إذا ذهبت.
- لن يقتلك أحد، أنسيت أنك من رجال «جيرالد» الآن؟
عجزت عن الرد، وتملَّكني الحزن.
- فقط تذكر ذلك؛ متى وقعت في ورطة فاتجه نحو الضوء.
- لكنك سترحل!
- يا «أزرق»، يا «آزوري»، استمع إليَّ، هل أنت منصت؟ متى وقعت في ورطة، فاتجه نحو الضوء.
قلت محاولًا تغيير الموضوع:
- ماذا عن «فينسينت»؟ أليس اسمك الحقيقي؟
- لا، لقد أطلقوه عليَّ.
- مَن أطلقه عليك؟
- «كيب تاون»، الناس، تفهم قصدي.
- لا يروقني اسم «أزرق».
- لكنه صار اسمك، وها أنت ترتدي البنطال.
- ماذا لو هربت؟
- لا تكن غبيًّا.
- لقد سرقوا مالي.
- كم من المال؟
- لا أعرف، لكنه مال كثير.
- لا تقلق، سيحترقون به.
- هذا ما قلته أيضًا.
نهض «فينسينت»، وشرع في السير.
- ماذا عن حذائي؟

- ستجده عند «جيرالد»، سيعطيك إياه حين تستعد، عليك الاعتناء بنفسك يا أخي، هل تفهم؟ لن يساعدك أحد في «كيب تاون»، عليك فعل كل شيء بنفسك.

- أتعني أنه لم يعد بإمكاني ائتمان أحد على مالي؟

- أنت تعرف ما أعنيه، النقود مسألة معقدة، إنها مثل البشر، تتبدَّل دومًا، صديقة حينًا، وعدوَّة حينًا آخَرَ، لا تثق بالنقود كثيرًا، فستتخلَّى عنك في النهاية دومًا، حدث ذلك معي، ألم أهبط «كيب تاون» بحقيبة سفر؟

نظرت إلى حقيبته الممزقة.

- لا تحوي هذه الحقيبة الكثير، لكنها أشيائي. هل فهمت طبيعة المال الآن؟

رافقته حتى المحطة، لم يبدُ منزعجًا للرحيل، بدا قويًا، بدا قادرًا على تدبير أمره أينما حطَّ الرحال.

- إلى أين أنت ذاهب؟ هل ستعود إلى «جوهانسبرج»؟

- بالتأكيد لا، فأنا لم أزر عائلتي منذ ثلاث سنوات، وإنما سأقصد «بورت إليزابيث».

- حسنًا.

كنت أعرف أنه سيشتاق إلى «كيب تاون». حين عبرنا مكتب التذاكر، أخبرني:

- حان وقت الرحيل.

كان ينظر إلى القطار القديم القابع في أحد أركان المحطة، قال:

- اسمعني جيدًا، اعتدت نسخ الواجبات من دفترك في المدرسة، الآن عليك النسخ من دفتري لاجتياز الاختبار.

وضمَّني إلى صدره.

لم يحتضنني شخص سواه من قبل. قلت بتأثر:

- أنت أخي الكبير، لم أحظَ بأخ كبير من قبل.

- فقط انتبه إلى نفسك، وتذكَّر؛ متى وقعت في ورطة..

- سأتجه نحو الضوء.

ابتسم «فينسينت»، وقال قبل أن يغادر:

- سأراك لاحقًا.

لم أنتظر صعوده إلى القطار، بل أسرعت بالمغادرة. سرت حول المحطة هائمًا، لم أشعر بالضياع في صحبة «فينسينت» قط، كنت أعلم وجهتي لأنها كانت نفس وجهته. عليَّ طرد تلك الأفكار، وعدم الإقرار بالاشتياق، فأنا أزداد قوة، أصير أقوى. نظرت إلى الأسد وأسنانه البارزة على الـ«تيشيرت»، وفكَّرت في «جيرالد»، يريدني «تي ركس» قويًّا، إنه يراقب، يستمع، رأيت في الخارج حمامًا يقف على العشب ولا يبدو عليه الغباء.

ذهبت إلى «لونج ستريت». ذهبت إلى المتجر الذي باعتني فيه المرأة الحذاء الجلدي، لكنها لم تكن هناك، وجدت أخرى أصغر سنًّا، بدت مُنتشية، فقد حيَّتني عند

دخولي:

- عينان جميلتان!

ابتسمت لأن بياضها كان مضحكًا.

فتَّشت رفًّا في نهاية المتجر، سرعان ما عثرت على سُترة تناسبني، سُترة سوداء منتفخة كسُترة الطيارين، وسعرها مناسب، خمسة وسبعون راندًا فقط، لكن بطانتها البرتقالية أقلقتني، حذرني «جيرالد» من ارتداء هذا اللون، وعلى الرغم من رحيل «فينسينت» قدرت أن الأمر ليس بهذه الخطورة، وقررت شراءها.

- سُترة جميلة.

ابتسمت لي ثانيةً وأنا أخرج النقود، يمكنني شم الحشيش في أنفاسها وابتسامتها. غمزت لها قبل أن أستدير مغادرًا.

- بالضبط، لا داعي للشكر، فالغمزة كافية.

قالتها وبادلتني الغمزة. لم أفهم قصدها، لكن الغمزة طمأنتني.

ارتديت سُترتي المنتفخة على الرغم من حرارة الجو. كانت تلمع في النور. اشتريت شطيرة بطاطس وعصيرًا وذهبت إلى الحديقة لآكلها. تبقَّى الآن عشرون راندًا، ماذا عساي أفعل بهما؟ ينصحني «فينسينت» دومًا بعدم حمل أوراق نقدية ذات فئة كبيرة. حسنًا، يمكنني استبدالها بخمستين، وعشرة، لكن ماذا سأفعل بخمسة عشر راندًا؟ لم أكن أريد إنفاقها، لكن ما دام «جيرالد» سيعطيني حذائي - أو هكذا آمل - فلا داعي لادِّخارها، وأين كنت سأدَّخرها إن أردت؟ لقد استولت تلك العاهرة الغبية على كل مالي.

حاولت تحديد جهة الإنفاق المثلى وأنا مستلقٍ على الحشائش. انقضى الوقت دون جدوى، وحين غلبني النوم العميق حلمت أني مُبحر في قارب، لكني استيقظت فجأة، كان قلبي يخفق بعنف، أخذت أستنشق الهواء، وتنفَّستُ الصعداء حين وجدتني في مكاني أسفل الشجرة. فقد حلمت بأني سقطت من القارب في البحر دون أن يراني أحد، وواصل القارب الإبحار وتركني أصارع الموج أوشك على الغرق. كان ذلك ليلًا. كم كان أمرًا مخيفًا! تلك الوحدة في عرض البحر، ليلًا، بلا إنسان أو يابسة قريبة، هل من شيء أسوأ من ذلك؟ قررت إخفاء مالي، لكن المدينة لا تصلح لذلك، فكَّرت في مكان آمن، نظرت إلى الجبل النائم في الأعلى، نظرت إليه طويلًا، ثم توصلت إلى الحل، سأخفي مالي في الجبل. إنه آمن كفاية، لكنني عاجز عن بلوغه. ما تزال قدمي في الجبيرة. أُحبطت، وقررت إنفاق كل المال. اشتريت زجاجتي مياه غازية وثلاث فطائر، وتبقَّى مبلغ لشراء حشيش.

ذهبت إلى «ليزيل» أسفل الجسر.

- قطعتان.

ناولتها النقود عبر السياج الضعيف.

أخذتها، ولم تقل شيئًا. تبدو مختلفة الآن. فقدنا تلك الرابطة التي كانت تجمعنا. لقد اعتدنا الحديث، اعتدنا الحديث عن موسيقى «الكوايتو» واهتمامات أخرى كثيرة تشاركناها، لكنها لم تعد تتحدث إليَّ، أعرف السبب، تظنني الآن أحدهم بعد انتقالي للعيش هنا.

جلبت الحشيش وتركتني لتستكمل أيًّا ما كانت تفعله. جلست بجوار «ما زاكيس» ألف سيجارة طويلة، سار أحد المُشرَّدين القدامى نحوي يطلب دخانًا، تجاهلته وواصلت الشرب.

- أهذا أنت؟ يا ابن الحرام.

كان ذلك «جيرالد» ينادي بالأفريقانية.

اقترب منِّي بعدوانية بادية، غطيت رأسي، فأمسك بمؤخرة رأسي وصاح يأمرني بالنهوض، وقفت، ولم أزل أُحيط رأسي بذراعي.

- لماذا اشتريت هذه السُّترة؟

- للدفء.

- ماذا قلت لك؟

- أخبرتني ألا أرتدي اللون الخاص بك.

ثم أردفت متضرعًا:

- لكنه لون البطانة.

تركني وذهب إلى حقيبة سيارته، أخرج منشارًا وعاد إليَّ كالمجنون، اللعنة، سيُقطِّعني أجزاءً صغيرة، أمسك بقدمي المصابة، وبدأ في نشر الجبيرة.

- تريد أن تصير رجلًا، أليس كذلك؟

قالها وهو يواصل نشر الجبيرة.

لم أنطق بكلمة، كنت أدعو ألا ينشر ساقي. أخذ الغبار الأبيض ينتشر في كل مكان.

- أتريد أن تصير رجلًا؟ أجبني أيها اللعين.

- لا يا «جيرالد».

- اللعنة عليك، أعرف أنك تريد أن تصير رجلًا، أتود معرفة ما أستطيع فعله؟ هه؟ حسنًا سأريك.

وأردف بالأفريقانية:

- أيها الساقط اللعين. أتسخر مني؟ أيها المُخنَّث.

نفذ المنشار إلى قدمي، لكنني لم أجفل، بدأ الدم يسيل.

- هذا ما تريده، أليس كذلك؟

رحت أتضرَّع:

- لا يا «جيرالد»، لا.

- اصمت يا لعين.

واستمر في النشر.

- حذَّرتك من ارتداء ذلك اللون، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أجبني، أيها اللعين، وإلا قطَّعتك بهذا.

أومأت برأسي. عندما أوشكت الجبيرة على السقوط مزقها بيده القوية وألقى بها في المرحاض.

- اغرُب الآن عن وجهي، يا ابن الحرام!

ركلني، وجريت مبتعدًا حتى الشارع الرئيسي، كان رأسي مُشوَّشًا، اندهشت لأن كاحلي كفَّ عن إيلامي، خلعت حذائي وحملته، مشيت بسرعة على غير هدى، ذهبت إلى المدينة، وتجوَّلت في الحدائق، ألقيت بالحذاء في سلّة مهملات، كان قلبي يخفق، واصلت السير، نظرت خلفي لأرى إن كان «جيرالد» يلاحقني، كان الحمام الذي يُحلِّق فوق الحديقة كلها يثير ريبتي، نبح كلب عليَّ، لكن صاحبه جذب طوقه، رمق رجل قدمي الحافية متعجبًا، نظرت إليه متوعدًا، رأيت في كل شخص مررت به بعضًا منِّي، ورأيت فيَّ بعضًا من كل شخص أعرفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

مررتُ بالمباني الحكومية، وصادفت في طريقي تمثالًا قبيحًا لرجل يمتطي حصانًا، كنت أتجه إلى الجبل في الحر لاهثًا كبهيمة. فتحت سُترتي. لا. اللعنة عليك يا «جيرالد»، قلتها وخلعت السُّترة. ثم قلبتها وأعدت ارتداءها جاعلًا اللون البرتقالي في الخارج.

سأدمرهم. سأدمرهم. كانت قدماي تحترقان خلال سيري على الطريق الإسفلتي والرصيف الساخن. حاولت السير في الظل قدر الإمكان مع الحفاظ على سرعتي، سواء في الشمس أو في الظل، واصلت السير، كان الطريق يزداد ميلًا كلما صعدت، مررت بحي هادئ لا يسمع فيه إلا نباح الكلاب خلف البوابات المغلقة، مررت بملعب كريكت يتدرب فيه صبية بيض البشرة، مررت بهم مُحمَّلًا بطاقة غضب، شاهدوني أدخل الغابة ولم يتفوهوا بكلمة، أثارت الزجاجات المُهشَّمة التي تملأ الأرض انتباهي فسرت على مهل وبحرص. كان «جيرالد» يطاردني، ابتلّ الـ«تيشيرت» بالعرق والغضب، شعرت برغبة في تدميرهم جميعًا. كانت الحجارة المُدبَّبة تؤذي قدميَّ، سرت أهزُّ كاحلي بين حين وآخر. ها أنا أزداد قوة. عندما تملَّكني الإرهاق جلست على صخرة في الظل أنظر إلى الأعلى، كانت الشمس تشتعل نارًا، أخرجت لساني، ولهثت ككلب، غمرتني طاقة حيوانية جنونية، سأدمرهم، كلهم، خلعت سُترتي وربطتها حول خصري، واصلت التسلق، كنت أبتعد، أزداد عُلوًّا.

مررت ببحيرة صغيرة يسبح فيها أشخاص بيض، يستلقون في الظل، ويسبحون في الشمس، يسير أطفالهم عرايا كآلهة صغيرة، ينتشرون في كل مكان، حدَّقت في الشمس، ثم نظرت إليهم، لم أرَ غير دوائر من نار، واصلت السير، صعدت دربًا حجريًّا إلى سفح الجبل، حيث لا شيء سوى الأشجار والصخور، جلست على صخرة لأعد سيجارة، آخر قطعة حشيش، لففتها ببطء وأنا أُفكِّر في كل مَن سأُدمِّرهم، توتَّر جسدي، ارتخت عضلاتي. أشعلت السيجارة وأنا أشعر بقوتي تزداد، سحبت نفسًا عميقًا ملأ رأسي جنونًا، كان صنفًا نقيًا، أمدني بالنار، ما يزال بإمكاني رؤية الدمار عند النظر إلى الشمس، دمار شامل.

أخذ قلبي يدقُّ بدويٍّ، يخبرني أنني حي، كان الهواء نظيفًا، شعرت بالظمأ وأنا أنهض لاستكمال الطريق، صعدت صخرة سوداء ضخمة، يشقها مجرى مائي، في البدء لعقت الماء من على الصخرة، فوجدته حلو المذاق، ثم شربت دون إسراف. واصلت السير، كانت قدماي تتحركان بسرعة، وتتعلق يدي بالأشياء بسهولة، مررت بأشجار ميتة، وأخرى متفحمة، وجدت لذة في رؤية تلك الجذوع السوداء، تحركت سريعًا، كجُرذ، زحفت فوق كل شيء. ها أنا أزداد قوة، سأدمرهم. خرجت إلى درب قادني إلى طريق، حين نظرت خلفي، رأيت المدينة، يقف الجبل شامخًا أعلاها، يقف هناك كعملاق يوشك أن يتحرك فيحطم كل شيء في طريقه. حدَّقتِ في الشمس ثانيةً، وشعرت بطاقتها الوحشية، نظرت إليها بعينين متضرعتين، غذِّيني، غذِّيني، ازدادت عضلاتي تصلُّبًا، نفرت عروق يدي، ثم بدأت المرحلة الأخيرة، ها أنا أصعد الجبل.

سرت فترة، ثم قررت خلع الـ»تيشيرت»، ربطته أيضًا حول خصري، مررت بأشخاص كثيرين، أغلبهم ذو بشرة بيضاء تدل أصواتهم على أنهم من وراء البحار، يُحدِّقون وينظرون ويشيرون إلى هذا وذاك، كل شيء في أنظارهم جديد، مررت بهم في ومضة. احتكت الصخور بقدمي القاسية الصلبة، لكن دمائي لا تسيل، فقط واصلت التسلق، إلى الأعلى، إلى الأعلى، تحمست لفكرة الكُرة النارية وهي تنمو وتدمر كل شيء في طريقها، شعرت بحرارة الشمس تحرق ظهري، تشربت الحرارة بلذة وأخرجتها عرقًا، ها أنا أتطهَّر.

حين أصابني الإرهاق، جلست في الظل، وحاولت تتبُّع الشمس، ازدادت هي الأخرى عُلوًّا قبل أن تبدأ الهبوط في الناحية الأخرى، أخبرتها أنني سأراها على الجانب الآخر من الجبل، ونهضت لمواصلة التسلُّق، أسرع، أسرع.

ينمو الجنون بداخلي، وتزداد الشمس قسوة، تزحف السحالي على دربي، وأزداد عُلوًّا، مررت بكلب برفقة صاحبه. نبضت عروقه، وقفت في الشمس أنظر إليه، كان بنطالي يلمع، وكذلك كان جسدي رطبًا ولامعًا أيضًا، لعقت أسناني، فرأى الجنون في عيني، لم يقل شيئًا، فقط شمشم الكلب حولي، تجاوزتهما إلى جدول ماء، كانت المياه صافية، غسلت وجهي ويديَّ أولًا قبل الشرب، شربت كل ما استطعت دون إسراف. كان عليَّ التسلُّق إلى الأعلى، إلى الأعلى، فرغت من الشرب، ونظرت إلى الشمس، حدَّقت بها بعينين مفتوحتين، وشعرت بالطاقة تتخللني، تختلط بالمخدر في رأسي وتمدني بالنار، عندما بلغت بُقعة ظليلة برد جسمي، لكن سرعتي لم تقل. نار! نار! سأحرقهم، ورحت أزداد عُلوًّا.

عندما نظرت إلى الخلف رأيت المدينة هادئة، بدت ضعيفة في الأسفل، بصقت عليها، سأسحق تلك المدينة. تجلَّت لي قمَّة الجبل، تُحلِّق بالأعلى طيور لها أجنحة طويلة كأنها تحرس الجبل، خرجت حيوانات كثيفة الشعر - تشبه القطط - كي تنظر إليَّ، حيوانات بدينة قصيرة الذيل، تجاوزتها، وصعدت باتجاه الضوء، عندما اقتربت من القمة ازدادت جدران الجبل بروزًا، صعدت درجات قادتني إلى باب منزوع ضلعه الأعلى، مفتوح إلى السماء، إلى الشمس، إلى النار! ذهبت إلى الأعلى باتجاه الضوء.

عرفت أنني بلغت القمَّة حين أبصرت صخورًا بيضاء رمادية، بلغني صوت أشخاص عن يميني، ذهبت يسارًا، تسلَّقت شيئًا ما، وسرت كأنني أعرف طريقي، هبطت الشمس ببطء في الجانب الآخر، كانت تحثُّني على الإسراع. تحركت معها، وواصلت السير. صارت القمَّة أخيرًا في مجال الرؤية، اتسع مدى الرؤية أمامي، رأيت جبالًا أخرى، رأيت البحر، بدا ممتدًّا إلى ما لا نهاية، مررت بأشخاص آخرين، لكنهم لم يقولوا لي شيئًا، ولم يكن لديَّ ما أقوله لهم، لقد نلت كفايتي من الكبار، إنهم كائنات نتنة. يريدون نارًا. سأصليهم نارًا. سرت باتجاه صخور قريبة، هواء الجبل النقي سبب لي الدوار، تحاشيت البرك الصغيرة، شمَّرت بنطالي إلى الركبتين، وواصلت السير. تساقط منِّي العرق، كان خصري رطبًا.

بلغتُ الصخور، فبدت لي الشمس مبتسمة، يمكنني سماع همسات حشرات وطيور، تقول إنه مجنون، إنه مجنون، واصلت السير، استوت الأرض أخيرًا، ورأيت حافة الجبل فاتجهت إليها. كلما ازددت قُربًا ازددت إصرارًا على تدميرهم. رأيت المدينة

ثانية، كانت تقترب، لا يصلني من الأسفل إلا صوت القوارب الكبيرة، تبدو كالدّمى من هذا العلو، نار! نار!

سرت بين عشب طويل لا أبصر فيه موضع خطواتي، كان شيئًا رطبًا ناعمًا، واصلت السير وشق طريقي في العشب الطويل، اقتربت، بلغتُ أشجارًا ميتة مقطوعة، تلك الأشجار التي تشبه السيد «ليبوفيتز»، الأشجار الطويلة ذات الإبر، شعرت برغبة في إحراقها.

غابت الشمس في الناحية الأخرى، لكن النور لم يغب، كنت بحاجة إلى مكان للنوم، قفزت فوق جدول، وصعدت جدارًا صخريًّا، كانت الأشجار الميتة في كل مكان، تسلّقت صخرة كي أصل إلى كهف صغير، سأنام هنا، انطلقت ضحكاتي. لقد فزت. سأدمرهم. دخلت الكهف، فرأيت رمادًا، شخص ما وضع أحجارًا حول الرماد، كان الكهف كبيرًا بما يكفي ليسعني والنار، كهف مغلق، ستستمر الرياح في الخارج. انحنيت للخروج، ثم اقتربت من الحافة. رأيت دربًا يفضي إلى مزيد من الصخور، قفزت فوقهٍ إلى صخرة كبيرة أخرى، يمكنني رؤية المدينة من هنا، كان الجو عاصفًا، تُحلّق بالأعلى طيور ضخمة، كوااا! تفتح منقارها الحاد، وتدور قبل أن ترحل، تباطأت دقات قلبي، وشعرت ببرودة، خلعت الـ«تيشيرت» المبتل والسُّترة.

قفزت عائدًا إلى الناحية الأخرى وعبرت النفق، خرجت إلى الشمس، فردت ملابسي على صخرة، ونزلت إلى الأسفل لجلب بعض الأخشاب، كنت سعيدًا، في غنى عن كل شيء، لا أشعر بجوع، ولا أشعر بعطش، لا أشعر إلا بنفسي، أشعر أنني قوي، قفزت من صخرة إلى أخرى كتيس بري، لكني تيس حَذِر. هزرت كاحلي وأنا أُفكِّر في «جيرالد»، ظن أنه سيدمرني، لكنني سأحرقه، سأريه الدمار، كل الدمار. بدأت في جمع الأخشاب، جمعت الأخشاب الميتة، تلك التي جفّت حتى صارت بيضاءَ أو رمادية، فهي تحترق بسهولة، تركت الأخشاب البنية، حملتها صعودًا وهبوطًا، وعبر النفق. كان عملًا صعبًا، لكني وجدت فيه المُتعة، عملت في صمت، كنت أعمل للمرة الأولى دون تفكير كثير، كنت أعرف ما أفعله. أختار بحكمة؛ تلك ستؤدي الغرض، لا، تلك ما تزال خضراء، لا، تلك ثقيلة، تلك خفيفة، تلك تبدو كثعبان، تلك تبدو كساق، ألتقط ما يروق لي، أنتقي الأخشاب ذات الهيئة المميزة. ثم أرجع مُحمَّلًا بأيادٍ وسيقان، وأجساد، وطيور، وفيلة، ووحوش لها أيادٍ وأرجل، وأشياء أخرى كثيرة، حتى أنني رأيت واحدة بدت كرأس طويل العنق، ووضعتها جميعًا في كومة خارج الكهف.

ذهبت إلى الجدول، وخلعت بنطالي قبل أن يتشرب الماء، واغتسلت، غسلت وجهي وأنا أدرس الخطوة التالية، شعرت خلال الاغتسال بحنين إلى السباحة، نثرت كثيرًا من الماء، لا أحد يراقبني، الهدوء يعم المكان، جلست على صخرة كبيرة دافئة حتى أجفَّ. لقد غربت الشمس، كانت تعرف ما أنوي فعله، تعرف سري، كان الجو دافئًا على عكس ما توقَّعت. دائمًا ما ترى من الأسفل سحابة بيضاء تحيط بالجبل كقماشة مبللة، فتظن أن الجو حتمًا بارد هناك. كانت هناك بعض السحب تحلق في السماء، شعرت برغبة في العودة، هبطت الصخور، وقفزت فوق الجدول، ارتديت بنطالي النظيف، وجلبت السُّترة والـ«تيشيرت»، وذهبت إلى النفق، فوجدت المكان أشد ظلمة.

عليَّ أن أسرع قبل تمام الظلام، التقطت أفرعًا صغيرة وصنعت مثلثا وسط دائرة الأحجار، ثمَ أشعلت النار، لكنها انطفأت، ذهبت إلى الخارج لنزع حشائش جافة، كوَّرتها وأحضرت إبرًا جافَّة من شجرة «ليبوفيتز»، وضعت الإبر والحشائش الجافة في فراغات المثلث، أشعل الحشائش الجافة والإبر فطقطقت، واشتعلت بسرعة، أمسكت النار بالأفرع كذلك، بدأت تحترق، نفخت لأزيدٍ اشتعال النار، كانت تطلب ذلك. ذهبت إلى الخارج وعدت بمزيد من الأفرع، غذَّيت النار ببطء، حرصت على وضع كل الأفرع في دائرة النار، حين تخرج أطرافها عن مدى النيران أدفعها نحو اللهب، احترقت في البداية ببطء، شاهدتها وعيناي مبتسمتان للنار، عندما استعرت النار جلبت أول ضحاياي؛ كان فرعًا على هيئة ذراع.

وضعته برفق فوق النار، فاشتعل بسهولة، كان يتضرع من أجل الدمار، شاهدت اللهب يغطيه. ملأ الكهف صوت هسيس هادئ. وبدأت الذراع في التفحم، شاهدت تقشر الطبقات الخارجية واحتراقها، رأيت الأفرع في الأسفل برتقاليةٍ ساخنة، إنه الجحيم، وأنا الشيطان، سأجلب «تي ركس». ذهبت إلى الخارج ثانيةً وعدت بفرع يبدو كرأسٍ وحش، وضعته فوق الذراع، أحاط بالرأس ريشٌ جافٌّ، كان أول ما احترق، فكَّرت في «جيرالد» وأنا أنظر إلى رأس الوحش، فلتحترق. تريد نارًا، أليس كذلك؟ تريد منِّي إحراقك، أليس كذلك؟ ثم خطر شيء على بالي، خلعت الـ»تيشيرت» ونظرت إلى سُترتي، فتعاظمت النار فجأة، ولفحت وجهي، غادرت الكهف لمنحها مساحة أكبر.

رأيت في الخارج دخان يتصاعد، وسمعت صوت جريان جدول، الجو هادئ ومظلم، والقمر بَيِّن. كنت مطمئنًّا لا أخشى شيئًا، تسلَّقت سقف الكهف، بدت الصخور متوهجة في ضوء القمر، توهَّج لون سُترتي البرتقالي هو الآخر، بدت الصخور مخلوقات غريبة ذات قرون، وبدت بعضها - للوهلة الأولى - كأشخاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لم أقضِ مثل هذه الفترة بمفردي في «كيب تاون»، كنت على ما يُرام، هادئًا ومطمئنًا، جالسًا في تجويف صخرة كأنه نُحِتَ للجلوس. باتت الشمس قمرًا، سرعان ما ستجوب القطط الشوارع، وذلك بسبب القمر؛ فهو يحرمها النوم. لا أميل إلى القطط كثيرًا، فهي في غنى عن البشر. تتَّسم بشيء من العناد والاستقلالية، وتشي أعيُنها بذكاء حاد. تعرف القطط أشياءَ كثيرة، تعرف ما يتوجَّب فعله إذا ما ظهر القمر، هذا على سبيل المثال.

حين وقفت للتبوُّل، تلألأ الماء في ضوء القمر، وجالت بخاطري ذكرى النوارس وما فعلته بي ذاك اليوم في السطح.

رجعت إلى الكهف لأجده قد أظلم، والنار توشك على أن تنطفئ. أحضرت مزيدًا من العشب الجاف والإبر، وضعتها على الجمر الأحمر، ووضعت فوقها الأفرع الصغيرة. احترقت الأفرع بسرعة، فرحت أضع المزيد، لتعلو ألسنة النار، تسألني الطعام، تتضرع طلبًا للدمار الشامل. أحضرت وحشًا متعدد الأذرع والسيقان، قطعت أطرافه وألقيتها في النار، فاحترق، وتقشَّرت، وعندما ألقيت بقية الوحش، انتفضت النيران شيئًا ما وأصدرت هسيسًا كأنما تراقبني. شاهدت اللهب يتلون بكل ألوان الطيف، لكنني أشد حبًّا للبرتقالي. أحببت الجمرات المشتعلة بالأسفل. أشعرتني مراقبة النار برغبة في الرقص، خلعت سُترتي ووضعتها في الركن، ستكون فراشي. بدأت أربت على فخذي كطبلة. أقمت ظهري وأغلقت عيني. ملأ الدخان رأسي، وتساقط منِّي العرق بسبب النار.

أغلقت عينيَّ، فرأيت الليل. حركت رقبتي. دقت الطبول في رأسي. ربت على فخذي. توهجت النار. بدأت رحلتي عبر الليل. رأيت ذئبًا رماديًّا يركض في ضوء القمر، مخلفًا آثار كفيه القويتين في الأرض. تبعته. جرى إلى حافة جرف، ثم انقلب طائرًا يبسط جناحيه في قلب السماء، طائرًا يحمل في فمه جُرذًا، يطير إلى عُشِّه ليطعم صغاره. هناك تنهش الصغار اللحم. كنت أشعر بجوعها. انحرفت ثانيةً فرأيت وحشًا في الظلمة، وحشًا ينفث نارًا، لكنه مظلم كالليل، كان جلده ظلامًا كالليل، حين يتحرك ترى النجوم تتحرك في سلسلة، يدور الوحش في دائرة وينفث نارًا. نارًا! هذا الوحش الجميل ينفث نارًا تملأ السماء. تحركت معه وتبعته، أخذ يزداد عُلوًّا في الفضاء. تبعته، ابتعد عن الأرض، ابتعد كثيرًا، تضاءل الكوكب، لم يعد غير كرة في الفضاء. واصلت تتبع الوحش الذي ينفث نارًا، وكلما ظننت أنني فقدته فتح فمه ونفث النار، مررنا بعديد من الكُرات، رأيت لبنًا مسكوبًا عن بُعد، اقتربنا منه فاستحال نجومًا، ملايين وملايين النجوم، تبدو كمجوهرات طافية. وبعد اجتياز عديد من الألوان والنجوم، أبصرنا الشمس، كُرة نار عظيمة تعجُّ بانفجارات برَّاقة.

شعرت بالدفء مع اقترابي من الشمس، ورأيت الوحش يلج في النار، ويقع انفجار كبير، بووم! أخذت نفسًا عميقًا وفتحت عينيَّ، رأيت رجلًا واقفًا عند مدخل الكهف، فانتابني الخوف.

- هل يمكنني الدخول؟

مسحت العرق عن وجهي، وأجبته بإشارة من يدي. كم من الوقت ظل واقفا هناك؟ انحني ليعبر، كان شعره البني الطويل أول ما كشفه الضوء. دخل الرجل مرتديًا صندلًا وبنطالًا قصيرًا و»صديري»، ترك حقيبته خارج الكهف، فلم تكن في الداخل مساحة كافية. راقبته بحذر وهو يجلس قربي، ويمد يده جهة النار كأنما يشير لها بالتحية.

- مشيت اليوم كله إلى أن داهمني الليل.

تمتمت وأنا أتفحصه:

- آه.

- اسمي «أوسكار»، ماذا عنك؟

مد يده ليصافحني، كانت قبضته قوية.

- يمكنك مناداتي بـ»أزرق».

- حسنًا يا «أزرق».

كان يتحدث بطريقة مضحكة.

- لستُ من هنا، أليس كذلك؟

- ومَن في «كيب تاون» منها؟

قالها وهو يعقد شعره. ذراعاه قويتان، رأيت انقباض عضلاتهما وانبساطهما بوضوح خلال أداء المهمة.

ثم أردف:

- يا لها من نار رائعة!

- مكان جيد للنوم، أليس كذلك؟

- بلى، لكنه مكان لا يسع اثنين.

حدقت فيه، يبدو أن المكان يعجبه.

أخرج شيئًا من حقيبته، راقبته بانتباه وهو يعد سيجارة. ثم ابتسم وهو يشعلها معلنًا:

- تبغ الكرز.

- آه.

خرجت الكلمة بنبرة غبية، كانت أعصابي مسترخية.

خرجت لإحضار مزيد من الخشب، عدت بفرع على هيئة ثعبان، وضعته بحرص في النار. سحب نفسًا صغيرًا، وبدأ يلهو بالدخان، نفث دوائر وأشياءَ أخرى تمتعت بمشاهدتها، ثم ناولني النصف الأخير من سيجارته. كانت رائحة الكرز اللطيفة تملأ الكهف.

- هل تأتي هنا كثيرًا؟

- لا.

وددت لو قلت نعم.

- أعيش في الجانب الآخر، في «هوت باي».

- هل أتيت سيرًا من هناك؟

- نعم.

- ليست بمسافة كبيرة.

لم يندهش لقولي. سألني:

- لا بد أنك معتاد على السير.

- صحيح.

نظر إلى قدمي، ولم يعلق. خلع نظّارته، ودعك عينيه، ثم ارتداها ثانيةً. قصد حقيبته وأخرج شيئًا ما، كانت لفافة فضية أفرغها واعطاني أربع شطائر خبز، واحتفظ بمثلها لنفسه، وأخذ يمضغ طعامه، يبدو أنه حشاش شَرِه، ابتسمت في قرارة نفسي، تناولت طعامي بسرعة، وانتهينا في الوقت نفسه تقريبًا.

- ما كان ذلك؟

- حمص وجبن.

- ماذا؟

- حمص.

كررها وهو يلعق أصابعه.

- أتولّى إعداده بنفسي.

- كان لذيذًا.

خرجنا من الكهف للشرب من الجدول.

سألته:

- كيف وصلت إلى هنا؟

- كنت تائهًا. خيَّم الظلام، ورأيت دخانًا، فتوجَّهت إليه.

وسأل وهو ينحني للشرب:

- وأنت؟

- مجرد صدفة. هل أنت مُتعب؟

- لا.

قالها، ونضح الماء في وجهه.

- الجو جيد، على الرغم من تلك الحرارة.

- من المؤسف عدم وجود حوض سباحة هنا.

- في الواقع، هناك خزّان جيد على الجانب الآخر.

- كم يبعد عنا؟

- يبعد مسافة سير ساعتين تقريبًا.

فكرت، ثم قلت:
- خذني إلى هناك.
- هل أنت مجنون؟
- يوجد ضوء كافٍ.
هرش شعره مُفكِّرًا.
- وكيف سنلتمس طريق العودة إلى هنا؟
- آه، أنت مُحِقٌّ.
- يمكننا الذهاب غدًا.
إذًا فهو ينوي العودة في الغد.
سألته مجددًا ونحن نجلس على صخرة:
- من أين أنت؟
- «هوت باي»، بعد «كليفتون»، و«كامبس باي».
- حسنًا، لا بد أنك ثري.
- لم تخبرني بمكانك من قبل.
تجاهل ملاحظتي. أخبرته:
- أسكن أسفل جسر.
- أي واحد؟
- ذاك الجسر، قُرب «جرين بوينت».
- آه، ذلك الذي لم يكتمل بناؤه؟
- لعله هو، لم ألحظ ذلك من قبل.
- أجل، إنه جسر غير مكتمل. سمعت عنه قصصًا غريبة.
- مثل ماذا؟
- هممم، مثل قصة الرجل الذي يعيش هناك، يقال إنه يتحكم في جُرذان «كيب تاون» كلها، إنها خرافة شعبية.
- دعك منه. أعرف رجلًا يعيش هناك، يستطيع تحويل أي شخص إلى حمامة أو جُرذ، حتى أنت.
- نتحدث في الأغلب عن الشخص نفسه.
- أشك في ذلك، فهو لا يغادر مكانه مطلقًا، إلا في سيارته.
- ما نوع السيارة؟
- «فورد جرانادا» بيضاء.
- السيارات البيضاء كثيرة في «كيب تاون». هل لاحظت ذلك؟
- لا.

- على كل حال، الناس تردد أي شيء هذه الأيام، لا يسعك تصديق شيء ما لم تره عيناك.

- أفهم قصدك. هذا صحيح، الأمر أشبه بوصف تجربة السباحة لمن لم يسبح في الماء قط، هل جرَّبت ذلك؟

- لا.

- هذا مستحيل، لا يمكنك ذلك، حاولت مرة مع صديقة تُدعى «ليزيل» - تعاملني الآن بشكل سيئ - وفشلت في ذلك.

- أشعر بذلك عند التحدث عن الجبل.

- ماذا عن الجبل؟

- لا يهم، لن يتفهم أحد سبب قيامي بذلك ثلاث مرات أسبوعيًّا.

- منذ متى وأنت هنا؟

- ثلاثة أشهر.

- لا تقلق، ذلك أمر طبيعي.. «كيب تاون» مدينة سيئة. ستحتويك في البداية، لكن عليك الحذر، وإلا دمَّرتك.

- هكذا يقول حبيبي.

فاجأني ذلك قليلًا.

- لم يخطر ببالي أنك مثلي.

- لا عليك.

- أنا أعمل معهم.

- ما نوع العمل؟

ربت بيدي على عضوي.

- آه، فهمت، تقصد تلك الأشياء. حسنًا، أنا لا أميل إلى ذلك.

أجبته مازحًا:

- جيد، كنت على وشك طردك من هنا.

لم يتقبل مزاحي، لكنه لم يعلق.

- أنت شديد القذارة بالنسبة إلى سنِّك الصغيرة، أليس كذلك؟

- أراهن أنك لم تقم بفعل بعض ما فعلته.

أخرج سيجارة حشيش من جيبه قائلًا:

- هذا الصنف من «مالاوي».

تشاركنا السيجارة وبدأت أنتشي، بدت السماء قريبة، كأن النجوم في متناول يدي.

- كيف الحياة أسفل الجسر؟

- يمكنك رؤية النجوم في الليل، إذا وقفت قُرب السياج.

- هذا لا يهم، هل تعيش مع مُشرَّدين؟

- لدينا بيت، لا يحوي مطبخًا وما شابه كبيتك، لكنه لا يزال بيتًا.

احترقت السيجارة.

- يجدر بنا النوم قليلًا.

قالها بطريقة الكبار.

أكره قيامهم بذلك، يقولون: «معذرة، أنا كبير الآن. حان موعد النوم، هيا اغرُب عن وجهي أيها المُخنَّث».

سبقته إلى النهوض، فقد عثرت على الكهف أولًا. سرت مسرعًا، أشق طريقي في الظلام إلى النفق، سمعته خلفي، ضخم وطويل يتخبط في سيره، كان يسير بخشونة، تصرخ النباتات من تحته كعملاق أخرق. كان الكهف مظلمًا، لا بد أن النار ستنطفئ.

- سأصعد إلى الأعلى.

قالها عند المدخل وهو يحمل حقيبته الكبيرة. لم أرد. ارتديت سُترتي، وأغلقت سحَّابتها حتى النهاية، ثم تمدَّدت على الأرض، لكنني شعرت بالملل، وعجزت عن النوم، فعدت إلى الخارج وانتزعت مزيدًا من الأعشاب، وجلبت بعض الإبر لأضعها على الجمر. نفخت بقوة، لكن لم يحدث شيء. التقطت مزيدًا من الأفرع الصغيرة، ورسمت مثلثًا جديدًا حول النار القديمة، وضعت الإبر والعشب الجديد بحرص متلهيًا عن أمر زائري. نفخت بقوة، لا يشغل بالي إلا النار. عليَّ تغذيتها. إنها جائعة. بدأت في الاشتعال. غذيتها بلطف، فتوهَّجت ببطء. كانت مُنهكة. أطعمتها فرعًا على هيئة ذراع صغير، وراقبتها، ثم نمت بعدما انطفئت.

- هل تشعل نارًا أخرى؟

لقد عاد، أجبته:

- ما المانع؟

غادر دون رد، سمعته يدهس النباتات في الخارج، يصطدم رأسه ويصيح عاليًا. راحت النار تشتعل ببطء.

لن يتمكن من المواصلة طويلًا، سيبتلعه الجبل، سيفقده عقله. سيكف عن الذهاب إلى العمل، لن يفكر إلا في قضاء وقته في الجبل، سيظن الأصدقاء أنه مجنون، وسيهجره عشيقه.

شاهدت الدخان يتصاعد خارج الكهف، سيثير ذلك جنونه، ويحرمه النوم. لم أسأله القدوم إلى هنا، فالجبل يعجُّ بالأماكن. ما الذي جاء به هنا؟ هؤلاء البيض مخلوقات نتنة. جلست أراقب النار، وشعرت برغبة في إلقاء وحش، لكنها توهَّجت، فتركتها وشأنها. أتمنى لو يغادر في الصباح. سأعثر على حمَّام السباحة بنفسي. يحسب البيض أن بوسعهم فعل أي شيء وقول أي شيء متى شاركتهم في بعض دخانهم. عليك اللعنة، أيها الغبي، أيها المُخنَّث. كانت النار تزداد اشتعالًا. ضممت رُكبتي إلى صدري، وكففت عن التفكير فيه. مَن يحسب نفسه؟

طقطقت النار وازداد الكهف ظلمة. أحتاج الآن إلى النوم. سأسبح غدًا، سأدمر الماء، سأسبح كأنها آخر فرصة. تكوَّرت على نفسي تأهبًا للنوم. كانت الأرض ناعمة. لم أهتم بالوسخ في شعري. كانت النار غطائي. وأغلقت عينيَّ لتبتلعني الأحلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

جُبتُ في الحلم أنحاء «كيب تاون» كلها، قابلت جميع مَن أعرفهم، لم يتحدث إليَّ أحد بكلمة، كانت شفاههم مُخيَّطة، ودماؤهم تسيل. رأيت الجميع، إلا «جيرالد». رأيتني أصعد جبلًا، كان جلدي رقيقًا، تكسوه علامات مثل جلد السحلية. رأيتني أصعد الجبل.

صادفت في طريقي قطيع وحيدات قرن، تنطح الناس وتقطعهم. واصلت طريقي، أتسلَّق الجبل عكس تيار الدم شديد الحُمرة، قابلت في الكهف امرأة من خارج هذا الزمان، كأنها أتت من حقبة شديدة القدم، قصيرة، ذات مؤخرة كبيرة، لكن ابتسامتها أعذب ما رأيت في حياتي. كانت ترتدي لباسًا جلديًّا لا يستر إلا فرجها، يشبه ثدياها الكبيران ثمار الفاكهة، ثمار كُمِّثرى ناضجة. كانت خجولة، اختبأت داخل الكهف، وتبعتها بحذر. كانت جالسة في ركن مع نار صغيرة تطقطق. دخلت وجلست إلى جوارها. لم أستطع صرف بصري عن وجهها، لها وجه جميل وبشرة صفراء متوهجة. لقد أعدَّت الكهف كأنه بيتها، رأيت عظامًا منقوشة، وأعشابًا تغري بالتدخين، وتماثيل حيوانات من طمي، وأشياء أخرى صغيرة جميلة. رأيت على الأرض أكثر الرمال نعومة، داعبت الحبات وأنا أُحدِّق في عينيها الكبيرتين الحزينتين. سألتها:

- ما اسمكِ؟

بدأت تنتحب.

- «سارتجي».

أجابت، وكفَّت عن البكاء.

ألقيت شيئًا من الرمال على النار، طقطقت النار، وضحكت هي.

- لقد قطعت مسافة هائلة كي أصل إلى هنا.

سألتني:

- إلى أي درجة؟

- لعلِّي عبرت المحيط، لا أعرف.

- كم هو شعور سيئ؛ أن تجهل المكان الذي أتيت منه.

- لطالما كنت هكذا، هل تعيشين هنا وحدك؟

بدأت في النحيب ثانية. قلت لها:

- لا عليكِ. هل تحبين السباحة؟

- لقد كنت سمكة.

قالت، وكفَّت عن البكاء.

- أما أنا فكنت حوتًا، لطالما أحببت الماء، لكني ضللت الطريق، وها أنا الآن هنا، هل تعرفين الطريق إلى البيت؟

- هذا بيتي، لا أعرف شيئًا سواه.

فكرت في عبارتها.

- هل تعرفين أي شخص آخر؟

دعكت عينيها، فسقطت من إحداهما دمعتان.

- لا عليكِ، يجب ألا تبكي.

- هل ستمكث هنا طويلًا؟

سألت وهي تمسح الدمع.

- لا أدري، لكن المكان يعجبني، أنا أعيش بالأسفل.

- المدينة! لا أحب تلك الضوضاء.

- أعرف، قضيت فترة ضياع طويلة هناك، أحاول الآن تلمُّس الطريق إلى البيت، قالوا إن عليَّ العثور على «تي ركس» أولًا، هل رأيتِ «تي ركس»؟

- ياه، هل تريد «تي ركس»؟

قالت مصفقة بحماس.

- لقد خرج اليوم.

- متى سيرجع؟

- بعد الانتهاء من الطعام، يعاني «تي ركس» من جوع شديد، لم يجد هنا كفايته فذهب إلى الأسفل ليلتهم الناس.

- هل يأكل الأطفال؟

- نعم، يأكل كل شيء.

قالتها كأُمٍّ فخورة.

- هل تعتقدين أنه سيأكلني؟

سألتها بقليل من الخوف.

- لا، لكنه سيفعل إن غادرت.

- إذًا سأبقى.

- أتعرف، كان هناك كثير من «تي ركس».

- كم كان عددها؟

- أربعة.

- لكن ذلك ليس بكثير.

- هل رأيت «تي ركس» من قبل؟

- لا.

سمعنا صوتًا مرتفعًا غريبًا في الخارج، واهتزَّت الأرض قليلًا.

- ذاك «تي ركس».

قالتها بابتسامة خجلة، وأردفت:

- أتودّ مقابلته؟

- لماذا؟

- إنه زوجي.

أجابت كأن في السؤال إهانة لها.

رافقتها إلى الخارج، ووقفنا على سقف الكهف. رأينا «تي ركس» في الأسفل، يدهس سيارات المدينة ويحطم مبانيها؛ يمضغ أناسًا لا تصرخ لأن شفاهها مَخيْطة بسلك.

- هذا زوجي.

قالتها وحاولت الحصول على زاوية أفضل للرؤية.

لما شاهدته يدمر المدينة انتابني الخوف، ثم عدنا إلى الداخل.

- إذًا فهو آخر «تي ركس».

- لا، بل أنت الأخير، فقد صار عجوزًا.

- أنا؟ لكني ما زلت صغيرًا.

- أعرف.

ثم نظرت إليَّ، وأردفت:

- ستصبح كبيرًا مثله.

- حقًّا؟

شعرت بعينيَّ تتسعان دهشة.

- إنه والدك.

- لماذا لم تخبريني من قبل؟ كنت أبحث عنه.

- لأنك لم تسألني قط.

وأردفت في توبيخ:

- وإنما سألتني عن بيتك.

- إذًا هذا بيتي؟

- لا أعرف، هل يعجبك؟

سكت فترة.

- يعجبني المكان، لكن أين سأنام؟

- يمكنك النوم حيثما تريد.

- هل يمكنني النوم هنا؟

- بالطبع، هل نسيت؟ لقد اعتدت النوم هنا.

- لكن.. أين ستنامين أنتِ؟

- أنام مع «تي ركس».

قالتها محاولة إخفاء ضحكة شقية.

- لكنني جائع.

أعدت لحمًا على النار، وأضافت أعشابًا وأشياءَ أخرى زكية الرائحة، فتناولت كل ما أمكنني.

- كنت جائعًا.

قلتها شاكرًا.

- ما الأطعمة الأخرى التي تتناولها؟

- حين يشتد بي الجوع آكل الجُرذان، لكن مذاقها سيئ.

- لماذا؟

- تفوح منها رائحة البول، حتى من لحومها.

تنهَّدت، يمكنني رؤية شيء من الحزن على وجهها، لكنني واصلت التحدث عن أمور مختلفة لأشتِّت تفكيرها.

- أنا مُتعبة حقًّا، عليَّ العودة إلى البيت.

راقبتها بحزن وهي ترحل، عندما خرجت وجدت الضباب. ضبابًا شديدًا حتى أنه سيحجب عنك يدك إن مددتها أمامك. عدت إلى الداخل، وبعد فترة دخل «جيرالد»، وجدني أطهو بعض اللحم على النار، جلس إلى جواري، وحاول التحدث، لكن شفتيه كانتا أيضًا مَخيْطَتين.

- لا تحاول الحديث، شفتاك تنزفان.

أصدر أصواتًا مكتومة، وحرك يديه بعنف.

- هل أنت جائع؟

أومأ.

- لا، لا يمكنك الأكل.

حاول التحدث فنزف، وتساقط الدم على صدره العاري.

- آه، انتظر. أسمع صوت «تي ركس» بالخارج.

قلتها بحماس.

اهتزَّت الأرض.

- أظنه يناديك.

أخبرته وأنا أقلب اللحم. ذهب «جيرالد» إلى الخارج، وتبعته عبر النفق. انقشع الضباب. وعلى مبعدة رأينا «تي ركس»، يسير بخطوات واسعة.

- أظنه يبحث عنك.

قلتها وربت على ظهره.

هزَّ رأسه.

- عليك الذهاب، أنت تدرك ذلك، أليس كذلك؟ لستَ كبيرًا بما يكفي لالتهمك، لكنني أنمو بسرعة.

هزَّ رأسه.

ضربته بذيلي فوقع، جرحت الصخور رأسه، إلا أنه نهض. جاء «تي ركس»، ومضغ رأسه، فاندفعت من رقبته الثعابين، ليشقها «تي ركس» بمخالبه الحادة، ويلتهم «جيرالد». عدت إلى الداخل لإتمام طهو قطعة اللحم. وضعتها على النار فترة، والتهمتها عندما احمرَّت ونضجت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

استيقظت عطشانَ، كان الجو حارًّا والشمس حارقة. خرجت، وخلعت السُّترة والبنطال، ووضعتهما على صخرة كي يجفَّا، وتسلَّقت السقف. غادر الغبي، لكنني رأيت آثار محاولة لإشعال النار. وقفت فوق الرماد بقدمي الخشنتين وتبوَّلتُ. كانت الشمس مشرقة، شعرت بأشِعَّتها على وجهي. سأسبح اليوم. هبطت بحماس، واغتسلت عند الجدول. لم أفكِّر في شيء سوى السباحة. شربت ماء كثيرًا، ثم ارتديت ملابسي، وسرت إلى الجانب الآخر.

مررت خلال حشائش مرتفعة، وتسلَّقت صخورًا. لقد ازدادت يداي خشونة. تقشَّر جلدي، لكنه لم ينزف. ألقيت نظرة من على قمَّة الجبل، ثم ذهبت ناحية التلال. رأيت أناسًا بيضَ البشرة في كل مكان، يحسبون أنهم يملكون الجبل، رأيتهم يأكلون رقائق البطاطس، ويشربون الكوكا، يشيرون إلى كل اتجاه كأنهم لا يخشون شيئًا، سمعتهم يقولون: «انظروا إلى ذلك، انظر إلى تلك. فلنذهب إلى هنا، هيَّا نذهب إلى هناك». يسيرون كأنهم يملكون الطريق، لا ينظرون إلى الأرض، فقط ينظرون إلى الأمام، لذا تهرب منهم الحيوانات التي يحاولون مراقبتها من كثب. لا يعرف البيض الخوف، والحيوانات تدرك ذلك.

سرت بمفردي، جاعلًا الشمس من خلفي دائمًا. هبطت طريقًا منحدرًا، ورأيت المياه، يحيطها جدار ضخم. سرت نحوها. عبرت الجسر إلى الجانب الآخر، ورأيت الخزَّان. هذا ما تحدَّث عنه الغبي. نظرت حولي فلم أرَ أحدًا، خلعت ملابسي ووضعتها على صخور بيضاء، أشد الصخور التي رأيتها بياضًا. للمياه لون بني داكن، تسبح عند حافتها بعض الضفادع.

اضطرتني الصخور إلى مقاومة رغبتي الشديدة في الغوص. صخور جميلة، لكنها تظل - على كل حال - صخورًا، غصَّت قليلًا، ثم صعدت، كان سطح الماء دافئًا، بينما كانت ساقاي في الأسفل باردتين. لا بد أن حمَّام السباحة عميق. لم أسبح حتى النهاية، فقد رأيت الماء ينسكب في الناحية الأخرى من الجسر. ستمتصني المضخة إن لم أكن حذرًا. شققت الماء بذراعي، شعرت بالقوة تملؤني، لم أُفكِّر في شيء سوى الماء. عندما أطفو وأنظر حولي تبدو المياه سوداء، لا يمكنك رؤية حتى يديك بالأسفل. شجعت نفسي، إنها مياه، ربما مخيفة، لكنها مجرد مياه في نهاية الأمر. ولما رأيت أحدهم يهبط الجسر باتجاهي، سبحت ذهابًا وإيابًا بسرعة ناثرًا الماء في كل الجهات.

- من فضلك.

ناداني رجل مُلوَّن يقف فوق الصخور.

- السباحة ممنوعة هنا. هذا خزَّان.

سبحت نحوه، ثم غادرت الماء عاريًا، واتجهت إلى ملابسي.

- آسف، لا يمكنك ذلك، إنها قوانين.

قالها وأنا أرتدي البنطال.

- هل أنت.. شيء مثل الشرطي هنا؟

قلتها ناظرًا إلى تلك الأشياء على كتفيه.

- شيء من هذا القبيل.

لماذا يقول الراشدون أشياءَ كهذه دائمًا؟ لستُ غبيًّا. لماذا لا يخبرني بطبيعة عمله؟

- لكن الجو حار.

- صحيح، لكن ذلك غير مسموح.

***

مكثت في الجبل أربعة أيام. أشعل في الكهف كل ليلة نارًا كبيرة، أحرق كل الأشياء، كانت أكثرها على هيئة أذرعًا، وسيقانًا، ووحوشًا. أستيقظ مبكرًا كل يوم، وأسبح في الخزَّان قبل وصول الرجل. أستمتع بالسباحة كثيرًا، وألهو بالماء وحدي.

أرى في الليل أحلامًا غريبة، أحلم بـ»سارتجي» دومًا. أتذكَّر أحد الأحلام جيدًا، كنا نسير ليلًا قُرب الخزَّان، وكان ضياء القمر ضعيفًا، فأشعلنا نارًا صغيرة لنبصر في الظلام.

- «مانتيس» غاضب.

قالت بعينيها الكبيرتين.

- مَن يكون «مانتيس»؟

- يسكن «مانتيس» القمر، لكنه يهبط الأرض أحيانًا.

- لا بد أن بإمكانه الطيران.

- يمكنه فعل أي شيء. لقد صنع «تي ركس».

- هل صنعكِ؟

- بالتأكيد.

أجابت مستنكرة السؤال.

- إنه أبي.

- ولماذا غضب؟

جلسنا أسفل شجرة طويلة لا تنتمي إلى ذلك المكان، بدأت «سارتجي» النحيب، جلست صامتًا، كفَّت بعد فترة عن البكاء ومسحت دمعها.

- لا أريد البكاء، لكن الوضع صعب.

- أي وضع؟

كشفت لي عن جرح قديم أسفل ثديها، رأيت يرقات تزحف داخله.

- «مانتيس» غاضب جدًّا.

قالتها وهي تنظر إلى الجرح.

- لا أفهم شيئًا.

- سرقت النسور أطفالي.

وشرعت تبكي ثانيةً.

- نسور؟

- أطعموها لـ«تي ركس»، لكنه لم يكن يدري أنها أطفاله، لذا غضب «مانتيس».

ابتلعت ريقها، وأكملت:

- إنه في أوج غضبه، لا يمكن لشيء تهدئته.

بعدها، رأيتني في الحلم ألتقط عظمة صغيرة من بين ضلوعها، أستخرج بها اليرقات أسفل ثديها، ثم أخيط الجرح بخيط ما، وأربط قطعة أخرى من الخيط بالعظمة وأعلقها أسفل الشجرة. ثم جلسنا لمشاهدة اليرقات وهي تتجمع حول العظمة، تضاعف عددها بصورة غريبة حتى اضطررنا إلى التقهقر، وجلسنا قُرب الصخور نراقب انعكاس السماء على الماء.

- «مانتيس» قادم.

كانت مرعوبة.

فجأة ظهر رجل عجوز.

- هذا والدي.

قالتها بحزن.

كان يمشي محنيَّ الظهر مستندًا إلى عصا طويلة، بِشرته جافة، كثيرة التجاعيد كأن شخصًا ما رسم الخطوط على وجهه، عيناه كماء مُتَّسِخ، قاتمة تحوي أسرارًا مخيفة. راقبته بحذر وهو يخطو خُطاه الضيقة.

- عليكِ العودة إلى الأرض يا «سارتجي»!

صاح عندما بلغنا، فشرعت تبكي.

نهضت لأرحب به، لكنه ضرب الأرض بعصاه، شعرت بحكَّة في مؤخرتي فجلست. نظرت إليه بخوف.

صاح بصوت عجوز:

- لقد حاولتِ خداعي!

قالت «سارتجي» وهي تمسح دموعها:

- كانت فكرته.

- مَن أنت؟

- كانت أُمِّي سمكة.

سمعتني أقول:

- أنا أكلتها.

قال بغير اكتراث.

- الآن، أخبرني من أنت؟!

- لستُ متأكدًا، لكنهم ينادونني «أزرق».

- أحيانًا أسبح في عينيك خلال نومك، إنها تحفظ لي شبابي.

- أتريد خداع الموت؟

قلتها بتحدٍّ.

نظر إليَّ بأشد ما رأيت من الأعيُن إثارة للرعب في حياتي.

طلبت «سارتجي» فجأة:

- أريد رؤية «تي ركس». ماذا فعلت به؟

- لا شيء.

- إذًا لماذا لم يرجع إلى البيت الليلة؟

شرعت في البكاء مرة أخرى.

- إنها دائمة البكاء.

- أنا أشرب دمعها.

- لماذا؟

لم يجبني، بل قال شيئًا غريبًا.

- أخبرتني النجوم أنك لا شيء، أنت تأكل لا شيء، وكل شيء، أنت جائع دومًا وظمآن، لكنك لن تأكلني، سأقتلك.

- لا! غادر واترك «سارتجي» وحدها، لقد أخبرتني النجوم، أنا أيضًا يمكنني سماعها.

- أنت ابن الشيطان، وحده شخص غبي مثله سينجب ابنًا مثلك.

استدار وسار مبتعدًا، ليبتلعه ظلام الليل.

- لماذا تواصلين البكاء؟

- لأنك قتلت والدي.

- إنما كنت أحاول إنقاذكِ، كان على وشك قتلكِ.

- لم أطلب مساعدتك.

جلسنا نشاهد النار، كانت تشتعل ببطء، تطير حولنا الخفافيش وتختفي، وفي الماء تلهو سمكة ما.

- اعتدت البقاء قُرب النهر سابقًا.

- لماذا لا ترجع ثانيةً؟

- كان ذلك منذ زمن، في الواقع لم أعد أذكر أين كان.

- لماذا غادرت؟

- بسبب بعض الناس، دائمًا هم الناس، قطَّعوني إلى أجزاء صغيرة، ونثروني في كل مكان.

جلسنا في الخارج طويلًا، لكن الشمس لم تشرق في الحلم قط.

- كان «مانتيس» حانقًا، حتى إنه سرق الشمس عند موته.

- إلى أين أخذها؟

- التهمها، وقد أحالته رمادًا.

جلسنا في صمت ثانيةً. قالت «سارتجي» فجأة:

- سأخبرك بسر.. أنت ابن الشمس.

وابتسمت.

- لكن «مانتيس» سرقها.

نظرت إليَّ، وشرعت تبكي.

- أنا مُتعبة.

- عليَّ الذهاب الآن.

قلتها ونهضت.

- لا يمكنك تركي وحيدة.

- ماذا تفعلين عندما لا أكون هنا؟

- أنتظر «تي ركس».

وابتسمت.

- إذًا فلتنتظريه.

- لكن لا يمكنني انتظاره وحدي.

- إذًا فمع مَن تنتظرينه؟

أشاحت بوجهها، فجلست غاضبًا، وما زال الغبار يتصاعد.

نظرت إلى الماء، كنت غاضبًا بسبب مكوثي معها، انتظرت أن تنام لأهرب، لكنها لا تنام مُطلقًا، تواصل الكلام كي تبقى مستيقظة، تتحدث عن أشياء سخيفة. مللت فنهضت للتبوُّل، خرج البول بلون أصفر زاهيًا، وبدأ يتوهج إلى أن صار نارًا. تبوَّلت فترة طويلة حتى انقلب بولي شمسًا. وعندما عدت في ضوء الصباح لم أجد لها أدنى أثر. خرجت للبحث عن «تي ركس» فلم أجد له هو الآخر أي أثر. جلست على السطح أُحدِّق في السماء.

منحت الشمس جسدي شيئًا من الدفء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

غادرتُ الجبل بعد أربعة أيام، ليس معي إلا سُترتي. كان صباحًا غائمًا، تصفعني رياح جليدية غريبة لم أعهد لها مثيلًا. ارتديت سُترتي، وسرت مسافة قبل مصادفة أي شخص. كان أول مَن لقيت رجلًا من أتباع ديانة الـ«راستافارية»، بشعر مجدول يصل إلى كتفيه، وعصا بدت ذات حياة مستقلة. نظرت إلى عينيه فعلمت أنه سيد الشر في الجبل. استدار لينظر ناحيتي وأنا أنحدر. «أنت رجل شرير»، قلتها في نفسي وذهبت إلى الأسفل.

قابلت بعدها ولدًا أبيضَ البشرة برتقالي الشعر، لمَّا تبسَّم رأيت أسنانه المُتَّسخة بُنِّية اللون. يرتدي «تيشيرت» أبيضَ بكُمَّين قصيرين، عليه صورة عدَّاء غائمة. حاولت تجنب النظر إلى ابتسامته القذرة عند مروري به. كانت أنفاسه عطنة تفوح منه رائحة العرق. واصلت السير. حجبت السحب الشمس. أسرعت في السير طلبًا للنشاط. خلعت السُّترة وقلبتها، كشفت عن اللون البرتقالي لأجذب ضوء الشمس.

قابلت غُرباء آخرين يرمقونني بأعيُن غاضبة، ينظرون إليَّ كأنما يعرفون ما كنت أفعله في الجبل. شعرت - على الرغم مما فقدته من وزن - أنني أكثر قوة، وأن صمتًا خفيًّا يتولَّى حمايتي. شعرت بشيء ما يرافقني خلال عبوري بهم. كاد فتى ينكبُّ على وجهه حين نظر إليَّ بشيء من الكراهية. لم أشعر بخوف، لم أتردد، لم أتعثَّر. نظرت إلى كل شيء بثقة. نظرت فوقي فوجدت الشمس ما تزال ساكنة، وتخفي أسرارًا.

وصلت أخيرًا إلى الطريق عند سفح الجبل. رأيت سيارة بيضاء بعيدة، سرت باتجاهها. بدت كأنها «جرانادا» بيضاء، كسيارة «جيرالد». اقتربت منها. كانت سوداء النوافذ. اقتربت أكثر، دار المحرك فجأة. دارت العجلات في مكانها قبل أن تنطلق السيارة مسرعة مخلفة سحابة غبار ورائها. لست أخشى شيئًا، ولا حتى الظلام.

هبطت دربًا آخرَ فصادفت الأشجار الميتة. كانت قدماي تسوقني. رحت أنصت إلى كل شيء. وراودتني خاطرة؛ الأشجار الميتة أحلام ميتة، فكَّرت فيما قد يعنيه ذلك خلال السير. عبثت في جيبي وأخرجت نقودي، ثلاثة عشر سنتًا. لا بد أني فقدت سنتًا في الجبل. أعدتها إلى جيبي، وواصلت السير. كان المشي لطيفًا على الرغم من عبوس السماء وغيومها. شعرت بالدفء، ففتحت السُّترة. يزداد الدفء كلما هبط إلى الأسفل، والرطوبة أيضًا. عندما بلغت الصخرة السوداء، استدرت أنظر إلى الجبل النائم. رأيت سحابة من الضباب تغطي القمة. وحين نظرت إلى الحافة رأيت وحوشًا وتنانين.

أمطرت السماء رذاذًا. لا مانع، فأنا لم أغتسل. شعرت ببرودة قطرات الماء الصغيرة على وجهي وصدري. أغلقت سُترتي ثانيةً. مررت بالبحيرة الصغيرة، لكنني لم أرَ سباحين في الماء، ولا عائلات حول المناضد. كان الماء يهبط بهدوء. تتنهَّد الأشجار بارتياح، إنها ظمآنة، ظلت هكذا لفترة. تزداد الحشائش نعومة، ولا تشخشخ عندما تدوسها، لا تصدر إلا صوتًا ناعمًا مكتومًا. خرجت من بين الأشجار إلى ملعب كريكت، بعشب أخضر وقصير. لم أرَ أحدًا يتدرب. سرت حول الملعب

وبلغت أذني أصوات المدينة. نداءات على سيارات أجرة، وكلاب تنبح، ومراكب تتجشأ كالحيتان. هبطت منحدرًا وعرًا من الحشائش الجافة، ودخلت خندقًا طويلًا. صادفت قطة ميتة، على فمها وعينيها ذباب ويرقات، خطوت فوقها وعدت إلى الطريق. ما تزال السماء تمطر قطرات. سُترتي هي معطفي الواقي من المطر، أرتديه بفخر ليشمل الدفء قدميَّ.

ذهبت باتجاه محطة الحافلات بحثًا عما ألقاه الباعة الجائلون من فاكهة. بحثت في عدد من الصناديق فوجدت ثمرة مانجو، ناضجة بشدة لكنها - على الأقل - ما تزال نظيفة. أزلت عنها ثلاث نملات، وبدأت في تقشيرها. تلطّخت يداي، فلعقتهما وأنا أُفكِّر في الكهف حتى عادتا نظيفتين. فكَّرت في فتاة أحلامي، لا أستطيع نسيان وجهها. أكلت الثمرة كلها ونظفت البذرة الكبيرة حتى بدت كرأس شقراء. حملتها في يدي سائرًا صوب محطة القطار. تعجُّ المحطة بالناس، كلٌّ يهرع إلى عمله. تتوقع أن يصدمك أحدهم في هذا الزحام، لكن ذلك لا يحدث. كانوا يسيرون كأنما يعرفون وجهتهم. ذهبت إلى مراحيض الرجال. يقف بمحاذاة الحائط صف من الرجال يتبوَّلون. ذهبت إلى صنبور، وغسلت يدي. تساقطت قطرات الماء. خرجت وسرت ناحية المدينة. عبرت «صب واي»، وذهبت تجاه ذلك الطريق المزدحم عند نهاية المدينة. مشيت بين السيارات حين احمرَّت إشارة المرور، واتجهت إلى الجسر. لم أكن أُفكِّر إلا في الشمس. لقد توقَّفت السماء عن الإمطار.

قصدت «ليزيل» أولًا، لكني وجدت كوخها مُدمَّرًا. تجوَّلت في الأرجاء فوجدت أكواخًا أخرى مُدمَّرة. ما يزال كوخ «جيرالد» ماكثًا في الركن، لكن سيارته غائبة. ذهبت إلى متجر «ما زاكيس» فوجدته مغلقًا. اقتربت مني امرأة تعلق رضيعها على ظهرها، لديها ندوب فظيعة، تمر قضبان السكك الحديدية على طول وجهها كأن شخصًا أراد تغيير ملامحه. نظرت إلى جفونها الثقيلة. سألتني:

- عمَّ تبحث؟

- «جيرالد».

سارت مبتعدة، فذهبت إلى الدكَّة قُرب المتجر وجلست. مكثت فترة من الزمن إلى أن وصل «سيلي».

- ماذا جرى؟ لقد تهدمت نصف الأكواخ.

- دماء جديدة.

قالها وجلس إلى جواري.

- أين «جيرالد»؟

- ألم تسمع؟

- أسمع بماذا؟

- قتل نفسه، يقولون ذلك، عثروا في حجرته على سكين ملوث بالدماء.

- ماذا جرى في ظنك؟

- وجدت ذلك في حجرته.

وأخرج مخلبًا من جيب سُترته.

- ما هذا؟

- يقول جدِّي إنه مخلب أسد.

- هل سمع أحد صراخه؟

- لا شيء، ولا أي صوت، اغلق حجرته كعادته عند ذهابه للفراش، ولم يستيقظ أبدًا، اضطررت إلى اقتحام الحجرة، ما فعله بنفسه لا يمكن تصديقه، لا أظن أحدًا يستطيع جرح نفسه كما فعل «جيرالد»، لكنك لا تبدو مندهشًا!

- إنه «جيرالد»، كان سيموت على أي حال.

- كانت عصابة «تويني إيت» تخطط لقتله، لكن شيئًا سبقهم إليه.

- الظلام.

- انظر إلى مَن بقي هنا، غادر معظم المُلوَّنين، لن تجد رجلًا مُلوَّنًا هنا، كان «جيرالد» بمثابة الإله، وعندما مات هاجروا جميعًا، يشيع الناس في «كيب تاون» أن الشيطان فتك به.

- ماذا تظن؟

- أظنه دمَّر نفسه، لقد أراد قتلك، أتعرف ذلك؟ كان سيسرق روحك ليزداد قوة.

- أعرف، لقد أحرقته.

- كان يبحث عنك في كل مكان، كاد يُجَنُّ، حتى إنه بدأ يتحدث مع نفسه، تعجبني سُترتك.

وتحسَّس الخامة البرتقالية مبتسمًا. سألته:

- إذًا وحدهم السود يسكنون المكان الآن؟

- ليس بالضبط، عندما مات «جيرالد» لقَّنت «ليزيل» درسًا لن تنساه.

- لماذا؟

- إنها ساقطة، أتدري بأنها اعتادت وضع أشياء في سيجارتك؟

- أي أشياء؟

- أنت تجهل الكثير، لقد شهد هذا المكان أمورًا سيئة، مثل ذلك اليوم الذي أوسعتك فيه ضربًا، كان «جيرالد» يريد كسر إحدى عظامك، لذا جعلت الأمر يبدو كأنني كسرت كاحلك، وقد صدَّق ذلك، اللعنة، حتى أنت صدَّقت ذلك، لم يكن هناك أي كسر في كاحلك.

- لكن الأطبَّاء...

- اللعنة على الأطبَّاء. أراد منِّي «جيرالد» كسر إحدى عظامك ليتسنَّى له زرع شَرٍ ، لكنني خدعته لأنقذك، أعرف أنك قتلته.

- ماذا؟

- أعرف أنك صعدت الجبل.

- كيف عرفت؟

- رأيت ذلك، حلقت إلى هناك.

وضحك.

- كنت الوحيد الذي يمكنه رؤيتك، لم يكن الآخرون أقوياء بما يكفي للطيران إلى هناك.

- كان «جيرالد» شريرًا.

- «جيرالد» هو الشيطان.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه لم يمُت، لكنه صار ضعيفًا، أنت سلبته قوته، لن يستطيع الآن إيذاءك.

- كيف تعرف هذا؟

- لأنني ملاك.

- ملاك؟

- نعم.

- لكن..

- لا يحتكر الشيطان وحده ممارسة الشر، لقد أنقذتك بضربي لك، أنت أكثر قوة الآن، أليس كذلك؟

- نعم.

قلتها بحيرة.

فتحت «ما زاكيس» متجرها، وأدارت بعض الموسيقى، سمعت إحدى أغاني «توباك» التي حظر «جيرالد» تشغيلها، لم يكن يسمح لنا بالاستماع إليها مُطلقًا.

- ماذا تقول؟ هل الملائكة أشرار؟

- لا، بل أقول إننا نستطيع القتال حتى النهاية، نستطيع الصمود أكثر من الشيطان.

- لكنك قلت إنه لم يمُت.

- أعرف، لكن ذلك لا يعني أن بإمكانه الفوز.

- هل سيموت يومًا؟

- لا أعرف.

- هل تعبث بي؟

- وهل كنت أعبث بك عندما أبرحتك ضربًا؟

- لا.

قلتها مُتذكِّرًا.

ذهبت إلى «ما زاكيس»، وطلبت كوب ماء، فأعطتني إبريق مياه بمكعبات ثلج. جلست مع «سيلي» على الدكَّة أشربه.

- أما يزال بإمكانه سماعك عندما تتحدث وما يشبه ذلك؟

- لا، لقد مات كـ«جيرالد»، لكنه سيعود في صورة أخرى.

- كم يوجد منك؟

- الكثير.

أخرج سيجارة، وناولني أخرى. انتشينا في صمت، واستمعنا إلى سُباب «توباك» الذي طال كل شيء.

- إنه زمنك الآن.

قالها بعد فترة، كان يسبح في عيني.

- أنت مجنون.

- كان «توباك» ملاكًا، لكنه لم يدرك ذلك؛ لأنه لم يعرف والده.

- ماذا؟

- كان «توباك» ملاك الدمار.

حرك رأسه مع الموسيقى.

مر بنا رجلان أبيضان تبدو عليهما القذارة.

- متى جاءا؟

- منذ فترة قصيرة.

- يبدو عليهما الشر.

- إنهما أشرار، لكنهما لا يسببان أذى، إنهما كالبعوض، يشمان رائحة دمك، لكنهما يحتاجان إلى إسالة الدماء، وهما لا يستطيعان فعل ذلك.

- لماذا؟

- لأنك أحرقت نفسك بالنار.

- لكن أين الندوب؟

- توقف النزيف، أليس كذلك؟

- ماذا تقصد؟

حرَّك مؤخرته.

- كيف عرفت؟

سألته مندهشًا.

ذهب إلى «ما زاكيس»، وابتاع كوكا، ثم عاد ليجلس إلى جواري.

- الرب شديد المهارة.

قالها بجدية ونظرة الكبار، سألته:

- هل تؤمن بالرب؟

- لقد تجاوزت ذلك، أنا أعرفه.

قالها وتناول الشراب.

- أنت مخلوق نتن.

- يتوجَّب علينا تدمير «كيب تاون».

- لماذا؟

- إنها أوامر الرب.

- لكن لماذا «كيب تاون»؟

- أتسأل بعد كل ما فعلوه بك؟

التزمت الصمت.

- لأن الشر ماكر، ويحسن الاختباء، لم يظهر «جيرالد» منه إلا اليسير.

- أتعني أنه لم يكن شريرًا؟

-كان شريرًا، لكنه لم يكن الأكثر شرًّا.

- وأين ما هو أسوأ من «جيرالد»؟

- في الكنيسة، في البنك، في المدينة، لذا علينا تدمير «كيب تاون»، علينا اغتصاب النساء والأطفال، علينا قتلهم.

- أنت مجنون؛ هذا شر.

- هكذا يمكنك محاربة الشر، بواسطة الشر.

- أنت مجنون.

- نحن جند مقاتلون.

- ماذا تعني بنحن؟

عاد الرجلان الآخران وفي الخلفية صوت «تكزي» يغني الراب، كانت الموسيقى تغري للرقص. نهض «سيلي» ليرقص مع رفيقيه. شاهدتهم وشعرت بطاقتهم الجنونية. كانوا يدندنون مع الموسيقى. حين انتهت الأغنية جلس الجميع حولي. قال «سيلي»:

- عليك البقاء هنا الآن. سنعتني بك.

- أستطيع الاعتناء بنفسي.

- سيسلبونك قوتك.

- مَن؟

- «توينتي إيت»، و»هارد ليفينجس»، سيحاول كل الساقطين وذووهم أخذ طاقتك، عليك ألا تبقى وحدك.

قالها وأمسك يدي بلطف.

- عليك البقاء هنا، لا تملك الاختيار، إنهم يبحثون عنك.

- ماذا يريدون؟

- يريدون إجابات.

- لكنني لا أعرف شيئًا، بالكاد أبلغ ثلاثة عشر عامًا.

- يريدون النظر داخل رأسك، يريدون قراءة أفكار الرب.

- هذا شيء شرير.

- لا يهمهم ذلك.

- ماذا يمكنني فعله؟

سألت مُنهكًا.

- لا شيء، عليك البقاء هنا.

- ماذا إن لم أفعل؟

- بماذا نصحك «فينسينت»؟

نظرت إليه، ولم أنطق بشيء.

- نصحك ألا تطرح إلا الأسئلة ذات المغزى.

- كيف عرفت؟

- لأن «فينسينت» ملاك.

قالها بثبات.

- أنت مخلوق نتن، تملأ رأسي بالهراء، كيف أعرف أنك لستَ مجرد «جيرالد» آخر؟

- هل أوجه سكينًا إلى رقبتك؟

- لا.

ونظرت إلى الأعلى.

- أين ذهب الحمام؟

- أكله «جيرالد».

تسارعت دقَّات قلبي.

- تريد دفعي إلى الجنون، لكن ذلك لن يحدث.

بدأت أصرخ.

- اصمت. إنك تصدر ضوضاء، سأفتك بك إن واصلت ذلك، اصمت الآن، هذا أمر خطير.

سال الزبد على فمه، ونظر إلى الآخرين. خشيت أن يضربوني. جلست ساكنًا في ارتباك.

سألني «سيلي»:

- هل أنت جائع؟

- لا.

- هل أكلت؟

- لا.

- يا لك من أحمق!

قالها ونهض ليرقص.

- هل أنت خائف؟

سألني أحدهما، نظرت إليهما بعينين جامدتين، ثم حولت نظري عنهما.

- «سيلي» محق، أنت مجنون، ترغب في الموت، أليس كذلك؟

ضحك الآخر. قلت له:

- لا، بل أنتم المجانين.

- لقد اغتصبنا كل نسائهم بعد موت «جيرالد»، كل العاهرات المُلوَّنات.

قال ذلك أحدهما للآخر وانفجرا ضاحكين. سألتهما:

- لماذا؟

- كن يردن الدمار.

- أردن مقابلة خالقهن عبر الباب الخلفي.

قالها ذو العين الواحدة. صحت بهما:

- كلكم مرضى.

- نحن مرضى بالحب.

قالها «سيلي» وهو يرقص، وسرح في عيني ثانيةً.

- أنا مُتعب.

قلتها، فأخذني إلى حجرته، ثم أشعل شمعة، وأغلق الباب لكن لم يوصده، كان «جيرالد» ليوصده، لا أعرف إن كان ذلك يدعو إلى الاطمئنان أم إلى القلق.

نمت مترقبًا، فأنا لا أثق بهم، الكبار ثرثارون، لكنهم لا يخبرونك بكل شيء، لا يخبرونك إلا بقدر قليل، قدر أقرب إلى العدم. عمَّ يتحدثون؟ صاروا فجأة يتحدثون عن الرب، الرب فعل، الرب أراد. الكبار مخلوقات نتنة، عقولهم عفنة. أعرف أن «سيلي» أيضًا يدخن «الماندريكس». إنه مجنون. يزعم فعل ذلك باسم الحب. ماذا أفعل الآن؟ هل أصدقه؟ إنه مجنون، كلهم مجانين، يحسبون أنفسهم الرب، يحسبون أنهم يعرفون كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

فكَّرت في الجبل والكهف وأنا أتأمَّل احتراق الشمعة. مَن هناك الآن؟ ربما عاد ذلك الرجل الغبي طويل الشعر وتساءل: «أين هذا الصبي؟»، لكنني لستُ صبيًّا، أعرف أنني أبلغ ثلاثة عشر عامًا، لكنني لستُ صغيرًا، فأقراني في الشوارع يساعدون عائلاتهم، ويدبرون لأمهاتهم تكاليف العلاج، ويكسرون السيارات، ويسرقون الفكّة لشراء الإبر التي تحقن السائل في جسد الأمهات، ويسلبون العجائز متاعهن لشراء العقاقير، وعندما يرحلون تبكي النساء إلى أن يسيل الدمع والمخاط.

صبي؟ أنا لستُ صبيًّا، لقد رأيت الشرطة تغتصب امرأة في الليل قُرب القسم. رأيت رجلًا أبيضَ يصطحب ولدًا في عمر «بافانا» إلى سيارته، رأيت سيارة تدهس طفلًا مشردًا وتكمل طريقها. رأيت امرأة تلد في «سي بوينت» على الشاطئ وتلقي بالرضيع في البحر. صبي؟ اللعنة، اتركوني وشأني، لقد رأيت قاذورات تكفي لملء البحر، لقد ضاجعني ساقطون وأفرغوا عليَّ منيًّا كافيًا لملء حوض السباحة في «سي بوينت».

الساقطات كلهن سواء، لا يمكن الوثوق بهن، أين هي «ليزيل» الآن؟ إنها مخلوقة نتنة، أصدِّق قصة وضعها لأشياء في سيجارتي. كنت أعرف أنها ساقطة لعينة، لكنني تجاهلت ذلك، حسبتها صديقتي، ظننتها معجبة بي. كنت أعرف كيف جعلت «كيم» - تلك المرأة التي تسكن معها - تعاني. عندما مرضت «كيم» وعجزت عن العمل لم تساعدها «ليزيل»، لم تعطها أي طعام، تركتها تجوع لأنها ساقطة لعينة. رأيت «كيم» تبحث في صناديق القمامة، والآن يطمع كل شخص في مضاجعتي.

لكنني لا أطمع في شيء، لا أطلب إلا أن أكون بمفردي، لا أريد سوى السير في الشوارع بحرية، لا أريد التفكير في العصابات التي ترتاب في ظلها، لا أريد التفكير في الساقطين الذين يلتقطونني ليلًا حين تغيب زوجاتهم ليضاجعونني حتى أنزف مقابل مبلغ زهيد. لا أريد التفكير في القذرين الذين لا يغسلون أعضاءهم، لكنهم يريدون منك مداعبتها بفمك لإفراغها. لا أريد السير خائفًا طوال الوقت. لا أريد سماع «جيرالد» يخبرني أنني تعلمت سر الحياة بالخوف.

ماذا أقصد؟ أقصد أن الكبار أشرار، وأنهم يستخدمونك ويستخدمون أطفالهم ليستخدموك، يستخدمون أي شيء يستطيعون استخدامه، وعندما يتحقق لهم المراد يطمعون في المزيد. إنهم لا يكتفون أبدًا، لا أذكر كبيرًا قال مرة: «هذا يكفي»، يريدون المزيد دومًا، حتى وإن كان ذلك المزيد يستوجب منك العمل حتى الموت، إنهم مخلوقات نتنة، إنهم أشرار. لماذا يراقبونني؟ أي شيء ذلك الذي يعجزون عن الحصول عليه وأملكه؟ توجد أشياء كثيرة لتسرق، لماذا يريدون سرقة عقلي؟ لماذا يعجزون عن فعل الأشياء بأنفسهم؟ لماذا عليَّ بذل كل الجهد ليتولّى شخص آخر سرقته؟ الكبار شياطين، لذا يقولون إنهم قاموا بصنعك، يهددونك بإخراجك من الحياة، كما قال أبي مرة، لا أنسى ذلك مطلقًا، كيف يمكن لشخص قول ذلك؟ اللعنة، سأفرغ المنيَّ عليكم جميعًا.

لماذا لهم الكلمة الأولى والأخيرة؟ لماذا أُعلَّق دومًا في المنتصف؟ لم أسعَ وراء المشاكل قط. لماذا يريدون ملء رأسي بأشياءَ قبيحة؟ أرى أشياءَ قبيحة طوال

الوقت. أليس ذلك كافيًا؟ أيريدون مني رؤية الأشياء القبيحة والتفكير فيها دائمًا؟ أعليَّ أن أصير حمامة غبية حتى يمكنهم الشعور بالرضا عن أنفسهم؟ إنهم أغبياء. إنهم مختلون. إنهم مجانين.

حاولت النوم، لكن النوم رفض، أتاني بدلًا منه هاجس مفاده أن الناس يُراقبونني. تخيَّلت أسدًا يمزق «جيرالد»، تخيَّلت موته في أثناء نومه، تخيَّلت الدماء، دماءه ودماء كل مَن التهمهم، تخيَّلتها تتدفع من عروقه كخرطوم ماء جامح. فكَّرت في ملابسه وهي تحرقه، تخيَّلت الحياة تدب فيها بسبب النار، فكَّرت في كل الأشياء الغبية التي قالها وكيف اشتهى عيناي. كنت أراقب الشمعة حين أدركت أن عينيَّ هي الشيء الوحيد الذي عجز عن امتلاكه، لقد أراد عينيَّ، أراد أن يكون نظيفًا مثلهما، لكنه لم يستطع، قتله سواده، كذلك العجوز في الحلم.

غشاني صمت طويل عندما فكَّرت في تلك الأشياء، لم أكن أشعر بالاطمئنان تجاه «سيلي»، إنه مجنون، يمكنك رؤية ذلك في عينيه. تملؤهما النار، لذا كان يسبح في عيني، إن جنونه يحرقه، ولا يمكنني العودة إلى «سي بوينت»؛ فالكبار هناك أشد جنونًا. تنهَّدتُ، وقرَّرتُ البقاء أسفل الجسر، على الأقل سيطعمونني، وإن لم أكن أثق في ذلك، فـ«سيلي» يشبه الريح، يغير رأيه طوال الوقت، اللعنة على ذلك «الماندركس»، لا أريد رؤيته في أي مكان، لا أريد الاقتراب منه، إنه شرير.

حين انطفأت الشمعة، غطيت رأسي بملاءة، ونمت. في الليل زحف «سيلي» إلى جواري، تفوح منه رائحة «البراندي»، استيقظ ليتقيَّأ في الخارج، ثم عاد ورائحة «الماندركس» تفوح منه، لكنني لم أصدر أي صوت، وتظاهرت بالنوم.

***

استيقظت مُتعبًا كأنما أصابني دُوَار الخمر. كانت عيناي حمراوين، وأخذت أشرب كثيرًا من الماء. ذهبت مع «سيلي» إلى «سالت ريفر» في سيارة «جيرالد». جلست في الأمام، على المقعد المجاور له، لاحظت درج السيارة مفتوحًا، ولمحت داخله مسدسًا، أظنه عيار تسعة مللي.

- ما حاجتك إلى المسدس؟

- لا أحد يدري ما يُخبئه له الشيطان.

- يُخبئ ماذا؟

- أنت تطرح كثيرًا من الأسئلة، لذا تقع في المشاكل دومًا.

جلست صامتًا. قال بعد فترة:

- ربما سيحاولون قتلك.

- ربما سيقتلونك أنت.

- اسمع، أنا أحاول حمايتك.

ذهبنا إلى منطقة المُلوَّنين، حيث وقفنا أمام منزل آيل للسقوط. وقفت بالخارج أسفل الشمس، بينما دخل «سيلي» ثم عاد حاملًا سيجارة، وطلب منِّي عدم طرح أسئلة غبية. قُدنا السيارة في طريق طويل حتى «مايزنبرج». توقفنا عند الشاطئ، أعطى «سيلي» السيجارة إلى مُلوَّنين آخرين، وعاد بمظروف سميك. عُدنا إلى السيارة

ثانية، ثم رجعنا إلى المدينة. اشترى لي سمكا، وشيبسي، وكولا. تناولنا الطعام داخل السيارة قرب «صب واي».

- سأذهب للتمشية.

- لا تكن غبيًّا، وحدهم البيض يقولون ذلك، إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى الحديقة.

- لماذا؟

- أريد الاستلقاء في الشمس، ما المشكلة؟

- إذًا سأذهب معك.

ذهبنا إلى الحديقة، سرت في المقدمة، مررت بالنافورة التي يتجمع الناس حولها دومًا. لم أستطع مقاومة النظر حولي ومراقبة الناس. لا يظهر عليهم أنهم يُحدِّقون فيَّ، وإلا فهم يجيدون التظاهر بفعل شيء آخر. سرنا حتى الأشجار الطويلة. استلقيت في ضوء الشمس، وجلس «سيلي» إلى جواري. كنت أرغب في قيلولة، لكن لا أمل، أعرف أنه يراقبني، لذا اكتفيت بالاستلقاء والنظر إلى السحب. شعر بعد فترة بالملل، وأمرني بالمغادرة. لم أجادله، فقد كنت مُتعبًا. تبعته في صمت، وسرنا إلى السيارة، ثم عُدنا إلى الجسر.

- ماذا سيحدث لحجرة «جيرالد»؟

- اللعنة عليك وعلى أسئلتك، لا شيء، حسنًا، لا شيء.

وجدتني أتساءل عن الدماء، ماذا سيحدث لها؟ أظن أن الجُرذان ستلعقها على الأغلب. قلت لـ»سيلي»:

- أشعر بالإجهاد.

- اذهب للنوم.

ذهبت إلى كوخه، واستلقيت على فراشه، لم أُفكِّر كثيرًا، نمت على الفور، حلمت بأشياءَ كثيرة، أشياءَ بسيطة تساعدني على النوم لفترة طويلة، حلمت بحوض السباحة في «سي بوينت»، وبكثير من زجاجات المياه الغازية.

لم أحلم بمضاجعة امرأة قط، لستُ مثليًا. سألني ساقط مرة إن كنت مثليًا، أخبرته أنني لستُ كذلك، لكنني لم أحلم بمضاجعة امرأة، ولا حتى «توني براكستون»، وهو أمر غريب. يقول الآخرون إنهم يحلمون بذلك كثيرًا، لذا أكذب وأقول ذلك أيضًا، لكن ذلك لا يقلقني، إنما يقلقني عدم مضاجعتي أي امرأة، واعتيادي ذلك مع الرجال على الرغم من عدم ميلي إليهم، إنهم مشعرون ودميمون، أي شيء فيهم قد يجذبني؟

اعتدت اللعب مع «فينسينت» وبنات الحي في صغري، كنا نحب لعبة الأسرة السعيدة، أحب «فينسينت» تلك اللعبة؛ لأنه كان يؤدي دور الأب دائمًا، ويتسنَّى للأب مضاجعة الفتاة التي تلعب دور الأم. اعتدنا اللعب في الخلف قُرب المجرى القذر، حيث لا توجد أكواخ. يذهب «فينسينت» خلف شجرة مع الفتاة، يقول: «نحن ذاهبان للنوم يا أطفال»، ويستلقيان على الحشائش الطويلة خلف شجرة ما. يقوم كل

شخص آخر بدوره، ولمَّا كنت ألعب دور الأخ، كنت أعتني بالآخرين الذين يفترض كونهم الأشقاء الأصغر.

أحبَّ «فينسينت» دومًا لعب دور الأب، لكن الفتيات لم يحببن لعب دور الأم عندما يستلزم ذلك الذهاب إلى الفراش معه، كن يعدن سريعًا يشتكين كبر حجم عضوه. يأتي رده دومًا: «سيدخل إن فتحتِ ساقيك جيدًا». نضحك جميعًا ونبدأ لعبة أخرى يعرض فيها كل واحد عضوه للآخرين. لم أهوَ تلك اللعبة قط؛ لأن عضوي كان صغيرًا، لذا كنت أتخيل مضاجعة امرأة كي ينتصب عضوي، يضحك الآخرون، وتطلب الفتيات لمسه، لكنني لا أسمح لهن. لم يطلبن مرة لمس عضو «فينسينت»؛ فقد كان الشعر يحيط به، كان الوحيد الذي يملك شعرًا حول عضوه، ولطالما أثار عضوه الكبير والمشعر دهشتنا.

لكن السيدة «نتادو» رأتنا مرة وطاردتنا بمَقشَّتها، فركضنا بعيدًا، ولم تستطع الوشاية بنا؛ فلم تكن «مشينجفيل» بالصغر الذي يسمح لها بمعرفة مساكننا. كانت أيامًا سعيدة. ولما ازدادت نزعة التمرد عند «فينسينت» صرنا نهرب من المدرسة بعد الفسحة لنشتري السجائر. علَّمني «فينسينت» التدخين وإخراج الدخان من أنفي، لكن الهرب من المدرسة كان يسبب لي الضيق، فقد كانت أمي تسألني يوميًّا عما تعلمته في المدرسة، ولم أكن أحب خداعها، كانت دائمًا ما تكشف كذبي وتكتم سري، أما الأكاذيب الخاصة بالمدرسة فكانت تصدقها دائمًا، حتى وإن طال أنفي من فرط الكذب.

لذا لم أهرب من المدرسة مع «فينسينت» كثيرًا. ربما فعلتها مرتين أسبوعيًّا فقط. طلب منِّي الهرب معه في أيام تسميع جدول الضرب، كرهت ذلك لأنني أحببت تسميع جدول الضرب، لكنني كنت أهرب من أجل «فينسينت»، لقد كان لطيفًا معي. كان يضرب الأولاد الذين يضربونني بسبب عينيَّ الزرقاوين. كان «فينسينت» صديقًا جيدًا، لذا اعتدت الهرب من المدرسة معه. يعرف كل الحي أنه مقاتل شرس، ضرب مرة ذلك الولد بقوة حتى سال الدم من أنفه. أتعرف ما الذي فعله «فينسينت» حينها؟ لقد لعق دماء الولد من على قبضته، صار الجميع يخشاه بعدها، حتى بعض الأولاد الضخام. سعى كل الأولاد إلى صداقته، لكنه اصطفاني وجعلني صديقه المقرب، لم أنسَ ذلك قط، عندما يصيبني اليأس أحيانًا، أُفكِّر في ذلك اليوم الذي ضرب فيه «فينسينت» أضخم تلاميذ المدرسة عندما ضايقني.

كنا في الملعب في أثناء الفسحة، ورآني «روتن سيبو»، أمسك بمصاصة فأراد أخذها، وعندما رفضت لطمني بشدة وجذبها من فمي، لم أبكِ، لم أبكِ قط، ولا بكيت عندما كان أبي يضربني. جاء «فينسينت» ككلب مسعور، وطرح «روتن سيبو» أرضًا، سقط كما يسقط العملاق، ثم جلس «فينسينت» على معدته، وكال له اللكمات، لَكَمَه حتى سحبه المشرف إلى مكتبه، وهناك ضربه عشر مرات بالكرباج على مؤخرته بقسوة، أظن أن الدم سال منها. لم يتمكن من الجلوس على كرسي لأسابيع بعدها دون وضع جريدة مبللة أسفل مؤخرته، وصار منذ تلك اللحظة صديقي المقرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

تبعتُ «سيلي» في كلِ مكان، صرتُ ظله الثاني. معظم مَن يقيمون أسفل الجسر الآن من السود، لكن قلّة من الساقطات المُلوَّنات آثرن البقاء، على الرغم من مغادرة جميع الرجال، عدا الرجلين ذوي البشرة البيضاء، فهما ما يزالان هنا، لا يثرثران كثيرًا، ولا يحادثان إلا عجائز أسفل الجسر، لم أرهما مرة بشراب أمام متجر «ما زاكيس»، أو شيء من هذا القبيل، لكنهما ما عادا يقلقانني، شعرت أول الأمر أنهما يخططان لشيء ما، لم أعلم ماهيته بالتحديد، لكنني تشكّكت فيهما، أما الآن فيبدوان لي - كما قال «سيلي» - غير ضارَّين.

صارت الشرطة تأتي بكثرة منذ رحيل «جيرالد»، تُداهم المكان بحثًا عن المخدرات. لم يضبط «سيلي» قط، لكنه يعرف أنه تحت المراقبة. يتحيَّنون منه سهوة، لا يبدو أنهم يهتمون بالحشيش، ربما لأننا لا نبيعه بكثرة، أقصد أنني لم أشهد إيقاف شخص لبيعه سيجارة حشيش، لكن لا يمكنك الوثوق كلية بهؤلاء الساقطين، يمكنهم فعل أي شيء، دائمًا ما أكون حذرًا عند شرب الحشيش في الخارج، أفتح عينيَّ، وأنتبه لما يدور.

أحيانًا يكون «سيلي» لطيفًا، فيصطحبني مع صديقيه في السيارة إلى «مايزنبرج»، نركنها خارج الشاطئ، ونقيم حفلة شواء. نأكل اللحم على خلفية من أغاني «توباك» الصادرة من السيارة. نشرب، ونرقص، لكنني لا أسرف في الشراب. وحين يتمكن السُّكْر والبلادة من الجميع، أتسلّل بعيدًا للسير مع النوارس.

تطفو أكياس البطاطس على سطح البحر دومًا. بلغني أن بعض العصابات تلقي الإبر في البحر، أو تتركها مُلقاة على الشاطئ، تلك أشياء لا تحدث مُطلقًا في «سي بوينت»، فهناك مَن يراقب المكان دومًا. على أي حال، هؤلاء البيض مخلوقات نتنة، إذا رأوك تلقي بالمخلفات فسيطلبون منك الرحيل، أو شيئًا كهذا. من المؤسف أن الماء أكثر دفئًا في «مايزنبرج».

أحب مشاهدة الناس وهم يسبحون، أرى في ذلك نوعًا من النظام. في عرض البحر ترى وجهًا أبيضَ أو اثنين. يتزلّجون في الأغلب، إنهم لا يخافون البحر، يذهبون إلى هناك كأنهم يملكونه، تلك عادتهم. أما المُلوَّنون فتجدهم أشدَّ قُربًا من الشاطئ، يتضاحكون، ويتراقصون في الماء. لا يهمني رأي الناس، يجيد المُلوَّنون الاستمتاع بأوقاتهم، يعرفون كيف يتحصلون على المتعة، متى سمعت الضحكات والبهجة على شاطئ فسترى على الأغلب وجهًا مُلوَّنًا قُرب المكان. أما عند حافة الماء فستجد داكني البشرة، تشي هيئتنا بالخوف من المياه، تخوض النسوة الماء بقُبَّعات السباحة كي لا تتفاعل الكيماويات في شعورهن مع ماء البحر، كما يملن إلى ارتداء ملابس سباحة ضيقة ومضحكة، نحن السود نرتدي أشياءَ مضحكة في البحر، يمكنك دائمًا أن تستشفَّ خوفنا من الماء مما نرتديه. في إحدى المرات، رأيت امرأة بتلك الأشياء المنفوخة حول ذراعيها وخصرها، على الرغم من أنها لم تهبط حتى إلى الماء، بل اكتفت بالجلوس قُرب الحافة، لكن الرجال السود أكثر ميلًا إلى المغامرة، يخوضون في الماء مع المُلوَّنين، ويقضون وقتًا ممتعًا. يعود السود دائمًا إلى البيت بزجاجة من ماء البحر وبعض الرمال، يشربونها، ويوظفونها في جميع

الطقوس المضادة للشرور. لا يأبه البيض والمُلوَّنون لذلك، أراهم أحيانًا يجمعون الأصداف، ويحبون اصطحاب كلابهم إلى الشواطئ حتى إن لم يكن ذلك مسموحًا به.

يقول «سيلي» إنه لم تكن هناك يابسة قبل زمن بعيد، بل مجرد ماء، وكانت كل الأشياء - حتى البشر - تعيش تحت الماء. يقول إن السود هم أول مَن غادروا البحر وعاشوا على اليابسة، ثم تبعهم الآخرون، ولأننا تركنا البحر منذ فترة كبيرة، قبل الجميع، نسينا السباحة، وصرنا نخشى الماء، بدا لي ذلك منطقيًّا عندما سمعته، لكنه لم يفسر لي زُرقة عينيَّ وشغفي بالماء.

***

ازدادت زيارات «سيلي» إلى «سالت ريفر». بدأ يتركني ويذهب وحده. شعرت به يتغير تدريجيًّا. في البداية وضع حشوًا ذهبيًّا لأسنانه الأمامية، ثم اشترى الثياب الزاهية للماركات العالمية. كَسَا غشاءٌ من العجرفة عينيه، صار يرقب الناس بشيء من الكراهية. كما توقَّف عن تناول الطعام معي، صار يذكرني بـ«ألين»، وإن كان فم «ألين» أشد قذارة. لا أدري أيهما أسوأ. ذاع خبره في الشوارع، وشعرت بالقلق لأن الشرطة تراقبه. لم يكتفِ «سيلي» بـ«الماندريكس»، ولا بمجموعة مخدرات أخرى، فبدأ يستنشق الكوكايين، ويدخن «الكراك» أيضًا.

جاءت في إحدى الليالي ثلاث شاحنات شرطة صغيرة، واتجهت إلى حجرة «سيلي» مباشرة. أوقظوننا في منتصف الليل، وعثروا في غرفته على ثلاثة طرود من الكوكايين، وبعض «الكراك». ضربوه بشدة، ولم تنفعه المقاومة. راحت الكلاب تتشمم الأكواخ الأخرى. وقُبض على صديقيه. اصطحبت الشاحنات الجميع بعيدًا عن الجسر وهم يصرخون كالشياطين من مؤخراتها. لم أنم كثيرًا بعد ذلك اليوم.

وصلت في الصباح التالي أربع شاحنات، أيقظوا الجميع وأمروهم بالرحيل. شرعوا في هدم الأكواخ. صرخت النساء، وصحن، وسببن. خلال ساعتين كان جميع متاعنا مُكدَّسًا في الشاحنات استعدادًا لوصول الجرَّافة.

تخلَّيتُ عن كل أشياء «سيلي»، وقطعت عهدًا على نفسي بالعودة إلى الشوارع. فلينسوا أمري. وغادرت المكان بينما الجرَّافة تهدم كل ما في مرمى البصر.

ذهبت إلى «سي بوينت». شعرتُ بأن الطريق قد طال. قمت بالعد حتى المائة، مرات عديدة قبل الوصول. ذهبت إلى منطقة المثليين على الشاطئ، ووقفت قُرب حافة الماء. كانت السماء الغاضبة مسودة الغيوم، الرعد يُدوِّي، بينما البرق يُومِض بين تلك الغيوم. شعرتُ بالتعب والتيه. وقفت هناك أتمنَّى لو تأخذني المياه ثانيةً إلى البحر، لكن شيئًا لم يحدث. تنهار عند قدميَّ أمواج ضخمة، ويتجمع حولهما زبد أبيض. بحثت عن النوارس، لكن لم أجد لها أثرًا في أي مكان. وقفت هناك وحيدًا. ابتلَّت قدمي، وحين سقط المطر تحركت. بدأت معدتي تؤلمني، فلم آكل شيئًا، وشعرت بالضعف، لكنني سرت، بينما الأمطار تشتد. نظرتُ إلى الجبل، وشعرتُ بأن لا ملجأ لي الآن، الجو أيضًا غائم هناك بالأعلى، غيم داكن كئيب أشبه بالتنانين.

ضربت الأمطار ظهري وأنا أسير باتجاه «جرين بوينت»، لا أملك طاقة للهرب، أو الاختباء، فقط أُواصل السير. استقرَّت وتيرة سقوط المطر بعد فترة. عبرت «جرين بوينت» متجهًا صوب المدينة، ثم قصدت التلال. ازدادت الأمطار قوة،

هبَّت الرياح في وجهي. كافحت للصعودِ. وصلت إلى الأشجار، وواصلت السير، اصطدمت قطرات المطر بوجهي وتحطَّمت. شعرت كأنها قنابل ضئيلة. واصلت الصعود، وشعرت بالإحباط. تذكَّرت موت أُمِّي، وموت أبي. كانت الأشجار مُبتلَّة، عندما عبرت بها، انهال عليَّ مزيد من المطر. ذهبت إلى سفح الجبل، ونظرت إلى الأعلى. بدا مظلمًا ورطبًا، شاهدت قطرات المطر تسقط من عُلوٍّ شاهق لا لشيء إلا لتتحطم فوق وجهي فتصير قطرات أصغر. بدأت التسلُّق، لم تكن أمام معدتي فرصة للأنين، كان عليها العمل مع سائر جِسدي لبلوغ قمة الجبل الوعِر. بدأت أرتعش بردًا، لكنني واصلت السير. كلما تسلَّقت ازداد المطر قوة. تعثَّرت بصخرة على الأرض وسقطت. اصطدمت رأسي بصخرة أخرى وجُرِح، سال الدم، وازددت وهنًا. استجمعت قواي، وواصلت. ازدادت ملابسي ثقلًا، كانت مُشبعة بالمطر. تذكَّرت موت أُمِّي، وموت أبي.

واصلتُ السير، وبدأ رأسي يدور. عصفت الريح، فأوشكت أن أقع على ظهري، إلا أنها عادت لتهب في الاتجاه الآخر فأنقذتني. وصلتُ إلى قمَّة الجبل، كانت غائمة وممطرِة. كيف سأجد كهفي؟ رحت أسير تجاه التلال الأخرى. كانت الأرض مُوحلة، والماء في كل مكان. انزلقت خلال الخطو فسقطت، لكني نهضت وواصلت السير. أرعدت السماء وأبرقت. وكدت أسقط على درب شديد الانحدار بسبب الضباب. بمرور الوقت، تقبَّلت تلك الوضع، لن أجد طريقي إلى الكهف، لذا شرعت أبحث عن أقرب مكان للراحة. هبطت نحو طريق سكة حديدية مألوفًا، سائرًا على الجزء المرصوف. انقشع الضباب بعد فترة، عبرت الجسر، واتجهت أسفل أحد التلال. رأيت صخورًا ضخمة. عليَّ العثور على مأوى. قاومت الرياح. يحيط بالصخور سلك شائك، جُرحت إصبعي خلال تسلُّقه، بدأت تنزف، فمصصتُ الدم، كم أكره الدماء!

زحفتُ على الصخور إلى الجانب الآخر، وهناك وجدت مزيدًا من الصخور. ليس لقدميَّ نفع في المطر، فهما تنزلقان على الصخور. عليَّ التوسع في استعمال يديَّ كي لا تجرفني الرياح. وقبل هبوط الجانب الآخر صادفت صدعًا بين الصخور، صدعًا ضيقًا شيئًا ما. شفطت معدتي، ودخلت الشرخ. كانت الرؤية منعدمة في الداخل. أخرجت ولَّاعتي من جيبي، حاولت استخدامها، لكنها لم تعمل بسبب البلل. حين صفَّرتُ سافر الصوت بعيدًا. سمعت خفق أجنحة ودبَّ الرعب في قلبي. كان الشق مظلمًا، وبدا عميقًا، لكن لم يكن لي مكان آخر أقصده. عليَّ الدخول. تحسَّستُ طريقي في الظلام. ما تزال الأمطار تسقط على ظهري عبر الفتحة. لمست قدماي القاع، كان صخريًّا أيضًا. هبطت على أطرافي الأربعة، وزحفتُ. سال الضوء خلال الشقوق، ورأيت شيئًا يطير إلى الحفرة.

ارتعد جسدي، وفقدتُ السيطرة عليه. خلعت بنطالي وسُترتي وعصرتهما. كان الجو باردًا، تجفَّفتُ بالبنطال المُبلَّل، وأمسكت بالولَّاعة، ونفخت فيها مرتعشًا كي تجفَّ، وواصلت النفخ فترة طويلة. حتى الضوء المتسلل عبر الحفرة اختفى، فأظلمت الحفرة تمامًا.

فكَّرت في ملايين الأشياء وأنا أقف عاريًا في الظلام وسط ملابسي. كان التنفس في الظلام صعبًا، كأنك تحاول استنشاق وحوش. دعوت الرب أن تعمل الولَّاعة، لكن القطع الدائرية كانت تدور بلا جدوى. أمسكت ملابسي بحرص، وجازفت بالتقدم

قليلا. وصلت إلى بُقعة جافة، وجلست على صخرة باردة. هززت الولاعة وصليتَ طلبًا حدوث معجزة. انطلقت شرارة من الولَّاعة دون سابق إنذار. رأيت مشهدًا خاطفًا لكهف عميق، كان فيه شق يواجهني تمامًا. تراجعت خائفًا، ومع الشرارة الأخرى ملأت الكهف أصوات مئات من الأجنحة أو يزيد. ضغطت على الولّاعة لتنطلق شرارة أخرى، وأخرى، وواصلت المحاولة حتى ثبتت الشُّعلة.

زحفتُ على أطرافي الأربعة إلى الأمام، حين بلغت الشق نظرت إلى الأسفل، كان بالإمكان رؤية القاع على الرغم من الارتفاع الشاهق. عليَّ الوصول إلى الأسفل. تركت ملابسي، وعثرت على سلسلة صخرية تستمر حتى القاع، هبطتها بحرص. لم أزل أرتعد. ومسَّت قدماي التربة أخيرًا. رأيت فوقي ملاءة من الأجنحة المتحركة. كانت خفافيش. شعرت بالخوف، وقررت ألا أُعاود النظر إلى الأعلى، سرت على الأرض باحثًا عن أخشاب. دُستُ على صخور مُدبَّبة، فصرخت عاليًا من الألم. رأيت رمادًا في المنتصف. الأخشاب قريبة، هذا أكيد. ابتعدت أكثر. إنه كهف كبير. وجدت في أحد الأركان أفرعًا مُهشَّمة، وبعض الحطب. نقلتها واحدة تلو الأخرى. استعنت بالأفرع الصغيرة لصُنع مُثلَّث، فعلتها بحرص، فليست هناك أعشاب جافة لتساعد على الاشتعال. لا مجال للإخفاق. تفحَّصتُ مخزون الوقود في الولَّاعة، ما يزال فيها كثير من النار.

أشعلت الفروع، ونفخت بلطف، أمسكت النار بالأطراف على الفور، غذيتها ببطء وأنا أرتعد في الظلام، لا أُفكِّر في شيء سوى دفء النار المنتظر، حتى إنني نسيت جوعي. نَمَت النار بسرعة، وتراقص اللهب، فحصلت على رؤية أفضل للكهف. نظرت حولي فرأيت مزيدًا من الأفرع في أحد الأركان. ذهبت إليها، وسمعت المطر يشتد في الخارج. يقطر الماء قُرب الأفرع على صخرة، وتهب الرياح. هناك فتحة أخرى في الأعلى، لا شك في ذلك. رحت أجرُّ حطبًا ثقيلًا، جلبت كل ما أستطيع من الأخشاب الصالحة لإطعام النار. زادت النيران، وخرجت عن حدود الدائرة، فأزحت الصخور لتوسعتها. بدأت أسترخي حين شعرت بأثر الحرارة على جسدي، ما إن اشتعلت النار بثبات حتى تسلَّقتُ عائدًا إلى الأعلى لإحضار ملابسي، وضعت الملابس على حطب قُرب النار.

جلست لوقت طويل محتضنًا رُكبتيَّ أشاهد النار، لقد صارت ملاءتي. تخيَّلت الجسر والأكواخ كومة من الأخشاب والقمامة، لم يبقَ هناك - على الأرجح - سوى الجُرذان.

حين اقتربت النار من مستوى رأسي، نهضت وبدأت أتجوَّل، امتد ظلي إلى كل شيء، تجوَّلت في الكهف لا لشيء إلا لرؤية ظلي يتحرك، يتسلَّل بين الصخور كشبح. رأيت علامات غريبة على أحد الحوائط، رسم أحدهم أشخاصًا كالعصى يحملون رماحًا ويطاردون بقرة. رُسمت البقرة بمهارة، يمكنني تمييز قرونها وذيلها، تراودني أفكار مضحكة عند النظر إلى الرسوم الغريبة. شرعت أسير حول النار، سِرتُ في دائرة، تقودني رغبة غريبة في الحركة.

لم أجد شيئًا لأفعله، بدأت أصفق بيدي في أثناء السير. نَمَت النار، وتصاعد الدخان هاربًا عبر تلك الفتحة في الأعلى. أسرعت الخطو، وبدأت أُصفِّق مُصدرًا إيقاعًا. صفَّقتُ وبدأت أَثِبُ، صار الوثب قفزًا. بعد فترة بدأت أرقص، أُصفِّق وأدفع يديَّ جانبًا بعنف، يمكنني سماع صوت الخفافيش فوقي، رأيت بُرازها في بُقعة قريبة

على الأرض، رقصت حول النار مغلقا عينيَّ. رأيتني أركض كما الريح في غابة. أجري بسرعة شديدة، حتى إن الغابة بدت ضبابية. حين فتحت عينيَّ، طلبت منّي النار غذاءً، وضعت حطبة ثقيلة، فتطايرت شرارات صغيرة، ودارت في الهواء، بدأت أتعرَّق بعد أن ازداد جسدي حرارة، شعرت بكل عضلة في جسدي خلال الرقص حول النيران، ازدادت النار تضخمًا، وانتصبت، أصدرت صوتًا يختلط بصوت الرياح القادمة عبر الفتحة الأخرى، ذلك صوت أحلام تحترق، ملأتني الطاقة جنونًا، وواصلت الرقص.

عندما أغلقت عينيَّ رأيت حيوانات تجري بسرعة جنونية، رأيت وحيد قرن، وأبقارًا جامحة كبيرة القرون، وأفيالًا وأسودًا أيضًا، بدت هاربة من شيء ما، حتى إني رأيت سرب طيور يصنع سحابة داكنة في السماء، دبت الحياة في الأرض بفعل صوت تلك الحيوانات الراكضة، رقصت حول النار، وصفقت إلى أن نزف أنفي، رفعت رأسي، وواصلت الرقص، وقف شعر ظهري منتصبًا، زحف ذلك الشعور كأفعى على عمودي الفقري وانفجر في رأسي، بدأت في القفز عاليًا، وثبات هائلة حول النار، شعرت بجسدي خفيفًا. لم أكن أسمع سوى صوت الخفافيش والأمطار والرعد، يدق قلبي بعنف، فأحسب للوهلة الأولى أنه سيترك صدري ويندفع عبر فمي، رقصت إلى درجة الإنهاك، وانهرت على الأرض.

خفَّفت التربة الباردة حرارة جسدي، واستلقيت هناك فترة أستمع إلى دقات قلبي ريثما تستقر، وعندما غادرني الجنون نهضت ومسحت أنفي ببنطالي، وحدَّقت في النار، ما زلت أرى حيوانات تركض في فرار جماعي، وأشجارًا تطير في الهواء وتحِنُّ للشمس.

عندما شعرت بالجوع، أخذت رمادًا من على محيط النار، ورسمت أشكالًا على جسدي، رسمت دائرة على صدري، وزوَّدتها بأذرع وسيقان كأنها كُرة نار متحركة، رسمت أسفل عيني والخدَّين، وانتابني شعور غريب، كأنني فعلت ذلك من قبل. عندما نظرت إلى الرسوم على الحائط، عرفت أن الرسام - أيًّا كان - قد استعمل أنامله، كما استعمل أفرعًا وريشًا وأشياءَ أخرى ناعمة الملمس. نظرت وفكَّرت في فتاة أحلامي، نسيت اسمها، لا أتذكَّر إلا وجهها القمري الفاتن.

***

لم أستطع النوم في البرد، كان عليَّ البقاء مستيقظًا، واصلتُ الاعتناء بالنار. تملَّكني النُّعاس والإجهاد بعد فترة، فاختلطت اليقظة بالمنام. تراءت لي بعض الأشياء، رأيت «جيرالد» يحترق في النار فدعكت عينيَّ، فلم أجد شيئًا، رأيت وحوشًا وحيوانات كثيرة تجري في اتجاهي، ولمَّا اقترب صوت الحوافر، ضربني الفزع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

انسلَّت أشعَّة الشمس عبر الفتحة، ودَنَت النار من مستوى الأرض. أهملتها، فخمدت، وارتديت ملابسي، ما يزال بها أثر للبلل، وشيء من رائحة الدخان. تفوح من قدمي رائحة صرف صحي تُذكِّرني بكل الأماكن القذرة التي زُرتها، زحفت خارج الكهف، لم أنعم بنوم طويل، عيناي غائمتان، خرجت إلى النهار بعينين نصف مغلقتين.

يوم مشمس، لكنه عاصف بصورة غير مألوفة كأن السماء تخطط لشيء ما. إنها تكتم سرًّا. انتابني شعور بالقلق، وقررت البحث عن ماء، وعندما شربت من أحد الجداول وجدت للماء مذاقًا عجيبًا، يمكن رؤية الأملاح الحمراء على حافة الجدول، لم أُسرف في الشرب، يمكنني رؤية البحر من مكاني، يمتد بعيدًا إلى أن يلتقي بالسماء حبيبته. يبدو الماء مستويًا، لا يمكن الجزم بأنه ماء، مجرد شيء بلاستيكي أزرق يعكس الشمس ويتحرك على مهل كخط سير ميكانيكي، حدَّقت فيه فترة طويلة. لم يخطر شيء على بالي، أنصت إلى صوت الرياح وأنا أجلس فوق صخرة.

نظرت حولي، فلم أرَ أحدًا، أحب تلك الدقائق الهادئة التي أكون فيها وحدي، وليس معي راشدون، تمايلت شجيرات من أثر الريح واهتزَّت الأعشاب في كل الجهات، أما الصخور فبقيت على حالتها، لا تتحرك على الإطلاق، بدت الصخور كعمالقة لها رؤوس غريبة أتت من عالم آخر، ربما تتحرك ليلًا حين تأمن المراقبة. ربما تجوب الجبل كله، ربما يعيش أشخاص داخل الجبل ويخرجون ليلًا حينما لا يكون أحد منتبهًا، كانت فكرة جيدة، فقد أنستني أمر معدتي، لكن تلك الفكرة القبيحة قد عاودتني ثانيةً ماتت أمِّي، ومات أبي، ومكثتُ في الخارج إلى أن ارتفعت الشمس فوق رأسي.

توقَّفت الرياح فجأة، رأيت الغيوم تقترب، لكنها لم تبلغ قمَّة الجبل. حدث كل شيء بسرعة، وبدا غريبًا، كخدعة سحرية. رأيت الماء يتحرك في البحر بالأسفل، ازداد الموج قوة، يوحي الأمر بأن عاصفة على وشك الهبوب، لكنها لم تمطر، على الرغم من وجود بعض الغيوم الداكنة الثقيلة، كانت الريح تلهو بالأمواج، لكن الجو هادئ على قمَّة الجبل، كم هو أمر مقلق أن ترى الحياة تدبُّ في البحر، بينما الشمس مشرقة هنا، تتدحرج الأمواج من بعيد. أتتبَّع دورانها عبر البحر في طريقها إلى الشاطئ، شرعت تزحف فوق الرمال، وتبتلع اليابسة، منعتني المسافة الشاسعة من معرفة ما إن كان هناك بشر على الشاطئ أم لا.

اقتربت موجة ضخمة، نهضتُ واقفًا، كانت أكبر موجة رأيتها في حياتي، ازدادت قوة وسرعة. كتمت أنفاسي وراقبتها تشقُّ طريقها في المياه، وصل ضوء الشمس إلى البحر على هيئة بُقع، لكن الجو هادئ ومشمس على قمَّة الجبل. تحطَّمت الموجة الضخمة على الشاطئ، وأغرقت الشوارع. ظهرت موجة أخرى من بعيد، بدت أكبر من السابقة، وأكثر سرعة، تعجَّبتُ من سرعتها، وواصلتُ مشاهدة تلك الخدعة، دفعت بإصبع قدمي في الصخرة، بينما الموجة تتحطَّم على الشارع والمنازل القريبة، وتجرف السيارات. استمر الموج هكذا لوقت طويل، يزداد في كل

مرة قوة، ويُدمِّر جزءًا أكبر من الشاطئ، ثم غضبت السماء، وبدأت في إطلاق البرق، وضربت الماء بصواعق أرجوانية مُتعرِّجة، فأثارته، لكنها لم تمطر حتى الآن، صار الموج أعنف وأكبر حجمًا.

عندما نظرتُ إلى الأفق، رأيتُ غيمة داكنة تتحرك، غطَّت سطح الماء. دقَّقت النظر، فوجدتُ الغيمة تزداد قُربًا وقُربًا. غيمة كبيرة تمتد فوق البحر، تملأ السماء بضوضاء فظيعة كرعد عميق، وصوت يبدو مزعجًا للهواء نفسه. يمكنني سماع الطيور ترفرف من خلفي بفزع. نظرتُ إلى الوراء فرأيتُ أسرابًا من الطيور في السماء، تجمَّعت كل الطيور كسحابة سوداء، حتى إنني رأيت النوارس، ثم طارت الخفافيش من الكهف، جرت حيوانات صغيرة فوق الصخر بجموح، رأيت الأرض تدبُّ فيها الحياة على هيئة ضفادع وحشرات. قفزت عندما مرَّت بي أفعى، وضرب أُذني صوت فظيع كانفجار يقترب مُحدثًا دمارًا، وريحًا غاضبة تُطيح بكل شيء. جلست عندما مرَّت بي، واتخذت إحدى الصخور ساترًا من فُرط قُوَّتها، تسحق كل ما يقع في طريقها. نظرتُ من جانب الصخرة، فرأيتُ أطول موجة صنعها البحر على الإطلاق. تفوق كل ما رأيتُ من المباني طولًا، أدخلت رأسي ثانيةً، وأغلقت عينيَّ.

تذكَّرتُ موت أُمِّي، وموت أبي، وسمعتُ انفجارًا مُدوِّيًا في الأسفل يهزُّ الجبل. زحفتُ هابطًا بسرعة، فقد بدأت الصخور تتساقط حولي، تنسحق الأشجار تحت صخور هائلة الحجم، كل شيء يتفتَّت. توجد حيوانات صغيرة في كل بُقعة من الأرض، تركض في دوائر من الفزع، والسماء غاضبة ومكتظة بظلام ونار أرجوانية، يكاد قلبي يتوقَّف عندما أرى الماء عند حافة الجبل. توقَّفتُ عن السير، ونظرتُ إلى بقايا سقف منزل وأنقاض أخرى تطفو قُرب حافة الماء. تطفو رؤوس آدمية بيضاء كالعُشب. أشحتُ بوجهي، بينما الماء يزحف مقتربًا، وشرعتُ أجري نحو أعلى نقطة في الجبل، فدهست ضفادع صغيرة وسحالي. تصيح الطيور في السماء، وتسيطر على الجبل سحابة من الفوضى، ركضتُ إلى أن رأيت أشخاصًا آخرين، يركضون ويصرخون في ذعر، ثم انفتحت أبواب السماء، وعندما أصبحت في مأمن من الماء، توقَّفتُ عن الجري، وشاهدت الغيم الداكن يتفكَّك. وقفتُ على صخرة، وأبعدت بعض السحالي. أضاءت الشمس فوقي كملك يُهيمن على السماء بنوره. أطلقت كُرة من النار، انقسمت إلى كُرات أصغر، وهي تهبط بسرعة جنونية، وزحفت تحت صخرة، ورأيتُ كُرات من النار تتساقط حولي كشفرات ملتهبة. وعلى الرغم من رطوبة النباتات التي سبَّبها المطر فإنها تشتعل نارًا. جرت الحيوانات بحثًا عن مخبأ، وسمعتُ صوت الصخور يُحطِّم كل شيء. انكسرت جذوع الشجر كأنها أغصان، وسمعتُ من بعيد صوت صراخ آدمي مفجوع لأناس يحترقون، كانت السماء تمطر نارًا.

تذكَّرت موت أُمِّي، وموت أبي، ملأ صوت الدمار الهواء. أغلقتُ أُذنيَّ بأطراف أصابعي، وأغمضتُ عينيَّ بقوة. اهتزَّ الجبل، واجتاحت الرياح كل شيء، واشتعلت الحشرات، وبينما النار تتساقط، زحفت السحالي أسفل الصخرة معي، قفزت فوقي بفزع. حاولت تجاهلها ومواصلة إغلاق عينيَّ. سرعان ما أصبح الجبل كله تنوُّرًا، واستلقيت هناك أتعرَّق خوفًا، وعندما فتحت عينيَّ بعض الشيء، رأيت حوافر ومخالب وأقدامًا تجري في كل اتجاه، ثم صدر من السماء انفجار جحيمي، وعندما

سقطت كرات النار من السماء، أصدرت صوتًا مرعبًا كآلة قوية تمزق شيئًا مُفعمًا بالحياة، لا أمل لشيء في النجاة، إنها الشمس القاسية تستوي على عرشها.

أعرف الخوف جيدًا.

تنفَّستُ الهواء بعمق، وكتمته لفترة، وعندما أخرجته، فتحت عينيَّ. لقد رأيت مركز الظُّلمة، لقد رأيت القائم بأمور الظلام، إنه لساقط مجنون، أعرف أسراره، أعرف ما يقوم به عندما ننام، ماتت أُمِّي، ومات أبي.

..

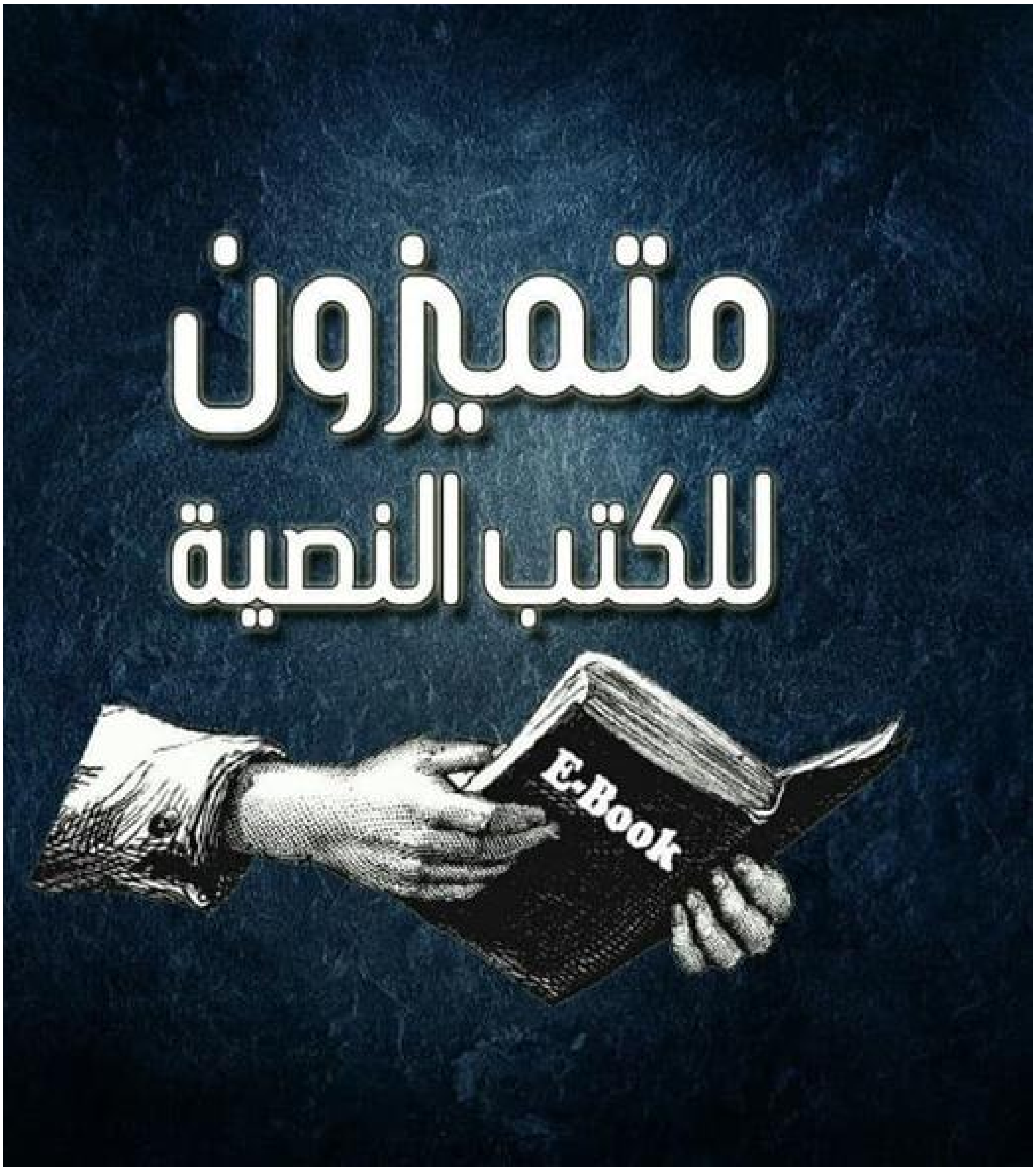
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
عن المؤلف..
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19

[20](#)
[21](#)
[22](#)